

مجازات النداء وحقيقته وأغراضهما في الخطاب القرآني

د. ظافر بن غرمان العمري *

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى

* من مواليد عام ١٣٨٤هـ بمدينة الطائف.

• نال شهادة البكالوريوس في تخصص الأدب من كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى عام ١٤٠٨هـ ، ثم نال منها شهادة الماجستير عام ١٤١٧هـ في تخصص البلاغة والنقد بأطروحته: " التناول البياني في تفسير فتح القدير للشوكاني" ، ثم نال منها درجة الدكتوراه في ذات التخصص عام ١٤٢٥هـ ، بأطروحته: " مخالفة مقتضى الظاهر في استعمال صيغ الأفعال ومواقعها في القرآن الكريم " (مطبوعة).

• البريد الإلكتروني: dhafamri@hotmail.com

الملخص

موضوع البحث هو: مجازات النداء وحقيقته وأغراضهما في الخطاب القرآني، ويتناول البحث هذه الحقائق والمجازات من جهة استعمال حرف النداء ومن جهة المنادى، وما تشتمل عليه الجملة المتضمنة النداء منهما، ويعنى البحث بتحديد أثر المجاز في الغرض البلاغي للنداء، وما يبنى على النداء في حقيقته ومجازه من معان، حيث آثر الخطاب القرآني - في مواطن معينة - النداء على الخطاب خالياً من النداء.

وقد تناول البحث مصطلح النداء لغويا وبيانيا، ثم أدوات النداء في القرآن ولأنه لم يقع في القرآن نداء إلا بـ(يا) - على أرجح الأقوال - فقد اقتصر البحث عليها من بين الأدوات، وأصل الاستعمال فيها، وتبين من أقوال أهل العلم أن النداء بـ(يا) خاص بنداء البعيد، فاستعماله للقريب مجاز.

ثم اشتمل البحث بعد ذلك على قسمين رئيسين: أحدهما: النداء من الله، والآخر: النداء من الخلق، مستعرضا حقيقة نداء الله لخلقه، ومجازات استعمال حرف النداء في كل من النداءين، وجاء النداء من الله في ثلاثة أغراض كبرى هي: النداء لتشريف المنادى وتكريمه، والنداء لإظهار عظمة المنادي (الداعي) وعلو منزلته، والنداء لعظم الأمر المدعو له.

أما النداء من الخلق فقد ورد في أربعة أغراض رئيسة هي: النداء لتعظيم المنادى (المدعو)، والنداء لعظم الأمر المنادى له، والنداء للحرص على إقبال المنادى، والنداء للتقليل من شأن المنادى، وفي كل غرض من هذه الأغراض نجد ترابطا بين إثارة نداء القريب بالحرف المخصص للبعيد، وبين الغرض الذي سيق من أجله الخطاب المشتمل على النداء، وتبين ذلك جليا - في نظرنا -

إذ ينزل القريب منزلة البعيد فيخاطب بخطاب فيه نداء، وذلك للأغراض التي أشرنا إليها، واعتنى البحث بتحليل الشواهد بما يغني عن التكرار في المواطن المتشابهة، إذ ليس غرض البحث هو استقصاء آيات النداء، فقد تحرى مواطن ترابط المجاز والحقيقة في النداء، وأغراض ذلك، وهنا تكمن خصوصية هذا البحث.

وقد ختم البحث بخاتمة تظهر ما وصل إليه من نتائج.

مقدمة

للخطاب في العربية وجوه تُعنى بتحري مناسبة الخطاب للمخاطب، وهو ما يعرف بمقتضى الحال، حيث يراعي المتكلم حال المخاطب، إذ نرى في الإسناد الخبيري مراعاة مختلف الأحوال فلكل من خالي الذهن والمتردد والمنكر خطاب يختلف عن غيره، وقد بين ذلك أهل العلم، وبينوا كذلك تنزيل أحد الثلاثة منزلة عن غيره وذكروا أغراض ذلك وأن حال المخاطب استدعى ذلك التنزيل. هذا في جانب الخبر، وفي جانب الطلب يراعي الخطاب كذلك حال المخاطب من وجوه، منها ما يتعلق بشأن المخاطب نفسه أو بشأن الأمر الذي حوَّطب من أجله، إذ إن طلب شيء من المخاطب يحتاج إلى مراعاة أمور أحدها: حال المخاطب وما هو عليه من اهتمام بالأمر الذي حوَّطب من أجله والثاني: منزلة المخاطب بالنسبة للخطاب، والثالث: منزلة المتكلم بالنسبة للمخاطب. ولكون المندى يقع بين بعد وقرب فقد راعى الخطاب البلاغي هذه الأحوال، وراعى التفاوت بينها. فخطاب البعيد ليس كخطاب القريب، وكذلك المنزل منزلة البعيد لأسباب تتعلق بالمخاطب أو بالخطاب.

ومما روعي فيه حال المخاطب في الأساليب الإنشائية؛ النداء، وهو يرجع إلى باب الإنشاء الطلبي وقد استعمل في سياقات تتعلق بالطلب إجمالاً في سياق الأمر أو النهي أو الاستفهام أو التمني، فالجملة الخطابية حين تساق مضمناً أحد أساليب الطلب السابقة تقترن في الخطاب بأسلوب النداء أحياناً، وتخلو عنه أحياناً أخرى، وما ذاك إلا لمزية ورعاية لمعنى لم يكن ليقع لولا النداء. وهذا البحث يدرس النداء من جهة كونه أحد خيارين في الخطاب، أحدهما أن يكون الخطاب مضمناً النداء مع أن ظاهره لا يستلزم نداء المخاطب، إلا أن المقام

الخطابي اقتضى أن يكون خطابه مضمنا النداء. والآخر خلو الخطاب من النداء. وتميز جملة النداء باشتغالها على جملة طلبية غير النداء، لأن النداء قد يأتي به المتكلم لأمر يتعلق بالجملة الطلبية التي اشتملت عليها جملة النداء، وفي الغالب فإن الجملة الطلبية تكون أمرا أو نهيا، وربما تكون نداء أو تمنيا، ويتضح من هذا أن النداء وإن كان طلبا إلا أنه ليس هو غاية الطلب في الخطاب العربي، وهذا ما يدعو لتأمل الغرض المستلزم لاجتلاب النداء - وهو أسلوب طلبي - لخدمة أسلوب طلبي آخر.

وعلى هذا فإن النداء في القرآن الكريم يراد به معنى يدعم الطلب المشتمل عليه سياق الخطاب. وذلك هو مناط الأغراض البلاغية التي يقوم عليها النداء في الكتاب الكريم، وهكذا فقد عنيت هذه الدراسة بتقصي ما ورد فيه من النداء للبحث عن أغراض استعماله في مقامات لم يكن المخاطب فيها بعيدا ينادى بنداء من لا يبلغه خطاب الداني، فاقترضى ذلك أن يكون الموضوع جاريا على هذا المنحى من تتبع هذه الخاصية.

وقد حفلت مباحث البلاغة بمسائل النداء إلا أن النظر يوجب تتبع أثر الاستعمال المجازي لهذا الأسلوب، لأن له مدخلا في وجه الخطاب الطلبي بعده. ويوجب كذلك البحث في خاصية الجانب المجازي في النداء وأثر ذلك الجانب على الاستعمال الحقيقي لمضمون جملة النداء حيث نبه أهل العلم على ورود النداء في صورتي الحقيقة والمجاز واشتمال كل منهما على أغراض ونكات، وهو تنبيه يدعو إلى تأمل جملة النداء. إذ يتضح شدة الصلة بين الاستعمال المجازي للنداء وغرض التركيب في الجانب الحقيقي من جملة النداء، وغرض هذه الجملة ليس هو حرف النداء والمنادى، بل هو ما سيق النداء من أجله، لأن النداء - كما

تقدم - ليس غرضاً للخطاب بل هو إنشاء يسلكه المتكلم ليتوصل به إلى غرض آخر، ولذا نجد تآزراً بين النداء (حرف النداء والمنادى) وبين سائر مكونات جملة النداء في القرآن الكريم. وعلى ذلك فقد انتهجت هذه الدراسة منهجاً يقوم على جعل الغرض المجازي للنداء مفتاحاً للغرض المراد من التركيب الحقيقي لجملة النداء، لأن النداء قد يكون فيه حرفه مستعملاً استعمالاً مجازياً ثم يكون المنادى بعده حقيقة فتكون جملة النداء (حرف النداء والمنادى) مركبة من مجاز وحقيقة، والغرض البياني يستخلص من اجتماعهما، فنجد للمجاز مدخلاً في غرض الحقيقة، ثم إن هذا الغرض الذي سبقت له جملة النداء يسري أثره في تركيب جملة النداء كاملة.

وبالنظر إلى ما ورد في الكتاب الكريم نجد النداء صادراً من الله أو محكياً عن الخلق، وفي كل منهما يقع الاستعمال المجازي للنداء، ويكون تنزيل البعيد منزلة القريب حيث نبه البيانون على أن هذا التنزيل وراءه أغراض وله دواع استوجبه، فافتضى ذلك أن يكون البحث ذا شقين أحدهما يتناول النداء الصادر من الخالق سبحانه، والآخر يعني بالنداء الذي حكاه القرآن عن الخلق. وتتبع مواطنه في القرآن الكريم ظهر جلياً أن تنزيل القريب منزلة البعيد يقع في أغلب مواطن النداء.

ولا ريب أن النداء إنما يكون بأداة، وإن كان وقع لبعض أهل العلم تسمية ذلك صيغة فلعله يراد به أسلوب النداء وهو التركيب الوارد فيه أداة النداء والمنادى وجملة الطلب التابعة للمنادى، ثم لا يخلو هذا الأسلوب من أن يكون مضمناً جملة خبرية أو خالياً عنها، أو أن يكون النداء عقيب الطلب وليس هذا بالشائع شيوع الأول الذي يستهل الخطاب فيه بالنداء.

النداء (الاصطلاح والدلالة البيانية):

النداء في اللغة هو الصوت، وناداه صاح به^(١). ويعرفه البيانيون بأنه: « طلب الإقبال حسا بحرف ناب مناب "أدعو"، سواء كان ذلك الحرف ملفوظا أو مقدرا »^(٢).

وبهذا التعريف يفهم أن النداء يطلب به الإقبال ولا يكون الإقبال إلا من البعيد لأن الإقبال المراد هنا، إنما هو الإقبال المكاني أي الانتقال من المكان البعيد إلى المكان القريب. ولذا قيدوا التعريف بقولهم: (حسا) ليفهم منه أولا الإقبال المكاني، أو الإقبال بالجسد.

وإذا فإن الأصل في هذا الباب أنه موضوع للبعيد وإسماعه والهتاف به، وأن أداة النداء (يا) التي هي أم الباب وأشهر أدواته، وأكثرها استعمالا، إنما تستعمل لنداء البعيد في الأصل، يؤيد ذلك ما نجده في كتاب سيبويه إذ يقول: « فأما الاسم غير المندوب فينبه بخمسة أشياء: بـ(يا، وأيا، وهيا، وأي، وبالألّف). نحو قولك: أحرار بن عمرو، إلا أن الأربعة غير الألف قد يستعملونها إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المتراخي عنهم، والإنسان المعرض عنهم، الذي يرون أنه لا يقبل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائم المستنقل. وقد يستعملون هذه التي للمد في موضع الألف ولا يستعملون الألف في هذه المواضع التي يمدون فيها. وقد يجوز لك أن تستعمل هذه الخمسة غير (وا) إذا كان صاحبك قريبا منك، مقبلا عليك، توكيدا »^(٣).

(١) اللسان ٣١٥/١٥ (مادة ندي)، لجمال الدين بن منظور، غير محدد الطبعة، دار صادر، بيروت.

(٢) مواهب الفتح لابن يعقوب المغربي (ضمن شروح التلخيص ٣٣٣/٢، الطبعة غير محددة الطبعة أو التاريخ، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة).

(٣) الكتاب، لسبويه ٢/٢٣٠، بتحقيق عبدالسلام هارون-الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

وهذا النص يفهم منه أن النداء بحرف سوى (الهمزة) إنما يستعمل في الأصل لنداء البعيد، وهو ما ذهب إليه أغلب أهل العلم، قال ابن مالك: «وكون الهمزة للقريب وما سواها للبعيد هو الصحيح، لأن سيبويه أخبر بذلك رواية عن العرب، ومن زعم أن (أي) كالهمزة في الاختصاص بالقرب لم يعتمد في ذلك إلا على رأيه، والرواية لا تعارض بالرأي. وصاحب هذا الرأي هو المبرد وتبعه كثير من المتأخرين»^(١).

ثم إن في كلام سيبويه ما يفيد أن نداء المتراخي يكون بمد الصوت، ولعل تسمية النداء (نداء) ناظر إلى ما فيه من معنى البعد، ففي القاموس «النداء بالضم والكسر، الصوت وناديته وبه، والندى بُعْدُه وهو ندى الصوت بعيدة»^(٢)، وقال في اللسان: «الندى بُعْدُ مدى الصوت، وندى الصوت: بُعْدُ مذهبه. والنداء -ممدود- : الدعاء بأرفع الصوت، وقد ناديته نداء، وفلان أندى صوتا من فلان أي أبعد مذهبا، وأرفع صوتا، وأنشد الأصمعي لمثار بن شيبان النمري:

فقلت: ادعي وأدعُ إن أندى لصوت أن ينادي داعيان»^(٣)

ومن قال بدلالة (يا) على البعد العلامة الزمخشري قال في المفصل: «يا، وأيا، وهيا، وأي، والهمزة، ووا، فالثلاثة الأول لنداء البعيد أو من هو بمنزلته من

(١) شرح التسهيل لجمال الدين بن مالك، ٣/٣٨٦، تحقيق د/ عبد الرحمن السيد، ود/محمد بدوي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، دار هجر، مصر.

(٢) القاموس المحيط لجد الدين الفيروزابادي، ٤/٥٧٢، الطبعة الأولى ١٩٩١م، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت.

(٣) اللسان ١٥/٣١٥ (مادة ندي).

نائم أو ساه»^(١) وقال في الكشف: «(يا) حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه»^(٢). وقد نسب أبو حيان لسيبويه أنه روى عن العرب أن الهمزة للقريب وما سواها للبعيد^(٣). وهذا الأقوال في عمومها ترجيح للقول بأن (يا) تستعمل في الأصل لنداء البعيد، يُعلم بعد ذلك أولويته على الرأي الذي يرى أن (يا) للنداء مطلقاً وهو رأي ابن الحاجب، إذ يقول في الكافية: «حروف النداء: (يا) أعمها»^(٤)، قال الرضي: «أي ينادى بها القريب والبعيد»^(٥). ثم ذكر أن دعوى المجاز في أحدهما خلاف الأصل. ولنا في هذا كلام سيبويه فيما نقله عن العرب، وما ذكره ابن مالك يعد توضيحاً لكلام سيبويه. والذي يظهر أن كثرة استعمال (يا) في نداء القريب أزال صورة المجاز من الأذهان، غير أنه لا بد من الأخذ بالأصل في استعمال العرب وهو أن (يا) تستعمل لنداء البعيد.

(١) المفصل ٣٠٩، لأبي القاسم الزمخشري، الطبعة الثانية، غير محددة التاريخ، دار الجيل، بيروت، وينظر كذلك الكشف لنفس المؤلف ١/٢٢٤. حققه محمد الصادق قمحاوي. الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ، مطبعة البابي الحلبي، مصر.

(٢) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجار الله الزمخشري، حققه محمد قمحاوي ١/٢٢٤.

(٣) ارتشاف الضرب من لسان العرب ٤/٢١٧٩، لأبي حيان الأندلسي، بتحقيق د/رجب عثمان محمد، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(٤) الكافية في النحو لابن الحاجب ٢/٣٨١، غير محدد الطبعة، أو تاريخها، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٥) شرح كافية ابن الحاجب للرضي ٢/٣٨١، غير محدد الطبعة، أو تاريخها، دار الكتب العلمية، بيروت.

ويمكن القول ببناء على ما تقدم أن النداء في الأصل وضع غالباً للبعيد، فنداء غير البعيد استعمال للنداء في غير ما وضع له، وإن كنا نكاد نجزم بأن (الهمزة) حرف تنبيه ألحق بباب النداء لأنه في الأصل للقريب وذلك بالنظر إلى كلام سيوييه وما نقله عن العرب، ولذلك كانت أدوات النداء كلها في الأصل للبعيد إذا استثنينا (الهمزة). ولأن الأصل البياني أن المجاز هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له في اصطلاح به التخاطب عند قيام القرينة الصارفة عن إرادة المعنى الأصلي. فإن كل نداء لغير البعيد داخل في المجاز، هذا هو الأصل في النداء غالباً.

ولا يعترض ذلك كثرة نداء القريب بهذه الأدوات المخصصة للبعيد أصلاً، فإن كثرة الاستعمال لا تلغي الأصل المجازي، على أن كثرة استعمال اللفظ مجازياً تدخله في عموم المجاز لتصبح الحقيقة بعضاً من استعماله. إلا أن ما يلاحظ من أغراض تتبع نداء القريب، يؤيد القول بأنه مازال وحي المجاز يسري في ثنايا نداء القريب بإحدى هذه الأدوات الأربع المذكورة.

وباب النداء يتضمن مباحث لطيفة، والدراسة البلاغية تعنى بكل من حقيقته ومجازاته، يستوي في ذلك الجانب الدلالي، وجانب النكات وأغراض اختيار حقيقته أو مجاز من مجازاته. قال في الأطول: « بيان حقيقته [أي النداء] وظيفة لغوية، ومجازاته بيانية، ونكات اختيار الحقيقة أو مجاز من مجازاته ووظيفة هذا العلم »^(١). يريد بذلك علم البلاغة.

(١) الأطول، لعصام الدين الحنفي، ٦٠٥/١، بتحقيق عبد الحميد هندراوي، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ، بيروت.

ولأننا بصدد دراسة النداء في القرآن الكريم فإننا سنقصر دراستنا فيما يتعلق بالأدوات على ما ورد منها في القرآن الكريم، إذ لم نجد في الكتاب الكريم نداء بغير (يا) عدا ما ذكره الفراء، من احتمال أن تكون الهمزة وردت للنداء في القرآن على وجه من القراءة. قال الإرطبي: « ولم يرد في القرآن نداء بغير (يا) لكن نُقل عن الفراء^(١) أنه في قراءة من قرأ قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ عِندَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ [الزمر: ٩] - بتخفيف الميم - أنه نداء بالهمزة فلا تبقى الدعوى مطلقة»^(٢).

أما وجه الدلالة في استعمال حرف النداء (يا) لنداء القريب فيتضح فيه سعة الاستعمال، وخصوبة المعاني، حيث يذكر البيانين أن ذلك إما أن يكون مجازا مرسلا، أو استعارة تصريحية، أو استعارة مكنية وتخييلية. وفي هذه الوجوه المتعددة التي يحتملها نداء القريب بـ(يا) تظهر خصوبة المعاني وعمق التعبير خاصة في النظم الكريم الذي كثر فيه أسلوب النداء من الله لعباده، وتضرعهم إليه سبحانه.

فأما الوجه الأول الذي هو دلالة المجاز المرسل فإن النداء معناه الدعاء، أي دعاء البعيد، فإذا استعملت أداة النداء (يا) في نداء البعيد فهو استعمال على حقيقته ويلزم من دعاء البعيد حينئذ وإبلاغه إبلاغ من هو دونه وأقرب منه لأن إسماع القريب لازم للدعاء والتهاتف الذي هو نداء البعيد، فالخطاب حينئذ

(١) ينظر معاني القرآن لأبي زكريا الفراء ٢/٤١٧ بتحقيق الأستاذ محمد علي النجار، لم تحدد طبعته، الدار المصرية للتأليف.

(٢) جواهر الأدب لعلاء الدين الأربلي بتحقيق الدكتور حامد أحمد نيل، (لم تحدد الطبعة) ٤٠٤هـ، مكتبة النهضة المصرية.

يصلح للقريب كما يصلح للبعيد، ضرورة أن ما خوطب به البعيد فإن القريب مدرك له؛ فلازم إبلاغ البعيد هو إبلاغ القريب فاستعمل الملزوم وأريد به لازمه فالعلاقة هي الملزومية. وهذا بيان لما ذكره الشهاب في نداء القريب بـ(يا) حيث يقول: «استعمل في لازم معناه على أنه مجاز مرسل»^(١).

كذلك فإنه يحتمل أن يكون الاستعمال من باب الاستعارة التصريحية التبعية في حرف النداء (يا) وهو الوجه الثاني من وجوه الاستعمال المجازي له، قال القونوي: «قول الداعي (يارب) ينزل البعد الرتبي منزلة البعد المكاني فيناديه بلفظ البعيد على أنه استعارة تبعية في لفظة (يا)»^(٢). ومن المعلوم أن الاستعارة التبعية في الحرف مبنية على استعمال الحرف في غير ما وضع له في أصل الاستعمال. فحرف (يا) كما تبين وضع لنداء البعيد، فنزل البعيد الرتبي منزلة البعيد المكاني ثم استعمل الحرف الدال على البعد المكاني للدلالة على البعد الرتبي، هذا إذا كان المنادى بعده رتبياً، أما كونه «نائماً أو ساهياً حقيقة فيجعل كل واحد من النوم والسهو بمنزلة البعد في إعلاء الصوت»^(٣). وواضح أن هذا النوع من الاستعارة داخل في استعارة المحسوس للمعقول، وذلك بتشبيه البعد الرتبي وهو عقلي بالبعد المكاني وهو حسي.

وهذه الحالات الثلاث تتعلق بالمنادى - أعني كونه بعيداً رتبياً أو نائماً أو ساهياً - فالحالة الأولى أن يكون المنادى بعيداً رتبياً، والثانية أن يكون المنادى

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة (عناية الراضي وكفاية القاضي) ٣/٢. للشهاب

الخفاجي، غير محدد الطبعة، أو تاريخها. دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٢) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ٣٤٥/٢، لعصام الدين الحنفي، ضبطه وصححه عبد الله

محمود عمر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) حاشية الدسوقي على مختصر السعد (ضمن شروح التلخيص ٣٣٤/٢).

نائما، والثالثة أن يكون المنادى ساهيا. أما الحالة الرابعة فتتعلق بالأمر المدعو له فإنه كلما كان عظيما و « بلغ من علو الشأن إلى حيث إن المخاطب لا يفي بما هو حقه من السعي فيه، وإن بذل وسعه واستفرغ جهده فكأنه غافل عنه بعيد »^(١). فتبين أن المنادى القريب في الحالات الأربع نزل منزلة المنادى البعيد على طريقة الاستعارة التبعية في حرف النداء (يا) .

والوجه الثالث من دلالة هذا النوع من الاستعمال - أعني نداء القريب بأداة نداء البعيد (يا)، بأن يكون على طريقة الاستعارة المكنية والتخييلية، وذلك في نداء العبد لربه ودعائه له في قوله: (يا رب) ونحوها. فإن الله قريب من عباده بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] . وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] والقرب المقصود هنا كما بينه أهل العلم هو قرب بعلمه تعالى^(٢) فإذا دعاه الداعي بأداة نداء البعيد (يا) فإن في ذلك الدعاء استعمالا للأداة في غير ما وضعت له، لأن الداعي إما أنه يحقر نفسه عن منزلة القرب فذلك "استقصار منه لنفسه واستبعاد لها من مظان الزلفى وما يقربه إلى رضوان الله، ومنازل المقربين، هضما لنفسه وإقرارا عليها بالتفريط في جنب الله مع فرط التهالك على استجابة دعوته والإذن لندائه وابتهاله"^(٣) ، أو أنه يقدر منزلة

(١) المصدر السابق.

(٢) قال السعدي: « القرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة ». ينظر لذلك : تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، ١/١٥٢، الطبعة الأولى ، غير محددة التاريخ، مكتبة الأوس، المدينة المنورة.

(٣) الكشف ١/٢٢٥.

ربه بعيدة عنه لعلوه سبحانه وإن كان قريبا، وذلك تعظيم من الداعي للمدعو. إذ نزل الداعي نفسه منزلة البعيد استصغارا لها واحتقارا لمقامها أمام خالقها. فالداعي يجري في تصويره ووهمه أنه بعيد عن المنزلة التي تخوله لئيل الاستجابة، فيتخيل بعد منزلته عما هي عليه حقيقة، وينزلها منزلة البعيد فينادي ربه بـ(يا) وهي من لوازم نداء البعيد، فكأنه دل على نداء البعيد بشيء من لوازمه وهو (يا). ولعل هذا هو مرادهم بالمكنية والتخييلية، لأن نداء ربه بـ(يا) فيه تخيل منه لنفسه أنه بعيد المنزلة، وهذا التخييل هو قرينة المكنية، أي نسبة البعد لنفسه بقرينة استعمال أداة البعد للجوار والتضرع.

وقد بين أهل العلم أن المجاز يدخل في نداء الله لمخلوقاته من غير العقلاء ففي قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأِ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُصِيَ الْأَمْرُ وَأَسْوَتَ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤] يشير الزمخشري إلى نداء الله الأرض والسماء وخطابها بما يخاطب به العقلاء، مبينا الاستعارة، وإن لم يصرح بذلك، لكنه ذكر التشبيه المؤذن بالاستعارة، فقال: « نداء الأرض والسماء، بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات، وهو قوله: ﴿ يَا أَرْضُ ﴾ ، و﴿ باسماء ﴾ ثم أمرهما بما يأمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ﴿ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ و﴿ أَقْلِي ﴾ من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء مميّزون قد عرفوا عظمتهم وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور»^(١). ويوضح ابن

(١) الكشاف ٢/٢٧١.

التمجيد الاستعارة وقرينتها وترشيحها إذ يقول: « قالوا هذه استعارة مكنية حيث شبه الأرض والسماء بالعقلاء المميزين فاستعبروا لهما استعارة بالكناية وجعل النداء قرينتها استعارة تخييلية، ثم رشحت الاستعارة بالأمر وبالبلع لاختصاصه بالحيوانات^(١) لأن البلع إدخال المطعوم في الحلق بعمل الجاذبية فهو ترشيح في ترشيح^(٢) ». وحمله البيضاوي على التمثيل، فقال: « نوديا بما ينادى به أولو العلم وأمرًا بما يؤمرون تمثيلاً لكمال قدرته^(٣) ». و « فيه إشارة إلى أن النظم استعارة تمثيلية، شبهت الهيئة المنتزعة من كمال قدرته على رد ما انفجر من الأرض إلى بطنها وجعله مضمحلاً بحيث لا يبقى له أثر ولا رسم وقطع انصباب المطر من السماء وحصول ذلك حين تعلق إرادته العلية بلا مهلة ولا ريث بالهيئة المنتزعة من أمر الأمر المطاع وطاعة مأمور مطيع للأمر الذي يأمره بلا توقف فذكر اللفظ المركب الدال على الهيئة المشبه به وأريد به الهيئة المشبهة ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من الانقياد والامتثال بلا توقف ولا تلعثم^(٤) ».

ويفهم مما سبق من كلام أهل العلم أن مدخل المجاز في نداء هذه المخلوقات جاء من جهتين إحداهما: هو استعمال حرف النداء (يا) لنداء هذه

(١) قوله: الحيوانات بعد تسميتهم المميزين لا تناقض فيه، فقد ذكر الجنس أولاً لتمييزه بالعقل، ثم أورد بالنوع لشمول البلع فيه، فلم يجعل البلع مختصاً بالمميزين فناسب أن يأتي بالنوع.

(٢) حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي، لمصطفى بن إبراهيم الرومي ٩٠/١٠، صححه عبدالله محمود عمر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي ٤٥٨/١، دار الكتب العلمية بيروت.

(٤) حاشية القونوي ٩٠/١٠.

المخلوقات تنزيلا لها منزلة البعيد، والأخرى: أنها خوطبت بما يخاطب به العقلاء، وهذه الأقوال التي تحمل الخطاب على أنه خطاب غير حقيقي في الآية -على نفاستها- لا تمنع من أن يحمل المعنى على الحقيقة، إذ لا يمتنع أن يكون لتلك الجمادات إدراكٌ وتمييزٌ الله يعلمه ونحن لا ندركه، وهذا يدل عليه مخاطبتها بالتكليف في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] ولقد أمرهما الله بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] ، فأجابتا بالطاعة، وقوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ ولم يقل (طائعتين أو طائعات) مع أنه الأولى من جهة ما يقتضيه الظاهر باعتبار أن غير المميز لا يخاطب. لكن عدلت الآية إلى ما يناسب العقلاء تدليلا على إجابتهن كما يجب العاقل المميز، ومثله ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] فقوله: ﴿سَاجِدِينَ﴾ يدل على الامتثال الذي لا يكون إلا من المميز، وكذا قوله تعالى: ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] فقال: ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾ كذا بإضافة التسبيح إلى ضمير ذكور العقلاء ، ولم يقل: "تسبيحه" كما يقتضي ظاهر قوله: ﴿شَيْءٍ﴾ ولم يقل: "تسبيحها" كما يقتضيه ظاهر الحديث عن غير العاقل على ما هو معروف في النحو. ذلك لأن النكرة في سياق النفي دلت على العموم وهو عموم قيده نفي الفقه عن المميزين فدل التسبيح المقصود على أنه تسبيح غير المميزين، ومع ذلك لم يُراعَ الظاهر وإنما روعي ما يستدعيه المقام من بيان استحابة غير المميز وطاعته وامتناله كما يمثل

ذو التمييز، ولعل في ذلك بياناً لدخول غير المميز من الحيوانات والجمادات في حكم العقلاء المميزين حينما تستجيب وتمثل للأمر. ولذا فإنه حينما أشفقت السموات والأرض وأبت من حمل الأمانة لم يقل "أشفقوا"، و"أبوا"، فقد يكون في ذلك إشارة إلى أن الطاعة والامتثال من غير المميز أولته صفة العقل وكمال الإدراك^(١).

ونحن بهذا نميل إلى القول بأن نداء الله لمخلوقاته من غير المميزين إنما هو نداء على حقيقته لما بيناه، ولأن كلام أهل العلم لم يتضمن نفيًا للحقيقة، وليس في الآية ما يلجئ للقول بأن الخطاب مجاز مادامت الحقيقة تسع المعنى وتظهر مزية من مزايا النظم، وتبين بعض أسرار الكون، وذلك وجه من وجوه الإعجاز. وإنما مدخل المجاز في هذا النوع من الخطاب يأتي في نداء تلك المخلوقات بنداء البعيد.

(١) وانظر إلى قول جرير:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

إذ أثر اسم الإشارة (أولئك) على (تلك)، لأنه يرى أن الحياة الحقيقية في أولئك الأيام. فأشار إليها بما يستعمل غالباً في الإشارة لذكور العقلاء، والمشهور أن يقال: تلك الأيام. ولا يقال إن النظم ألقاً الشاعر لأولئك دون تلك، لأن جريراً أقدر من أن يلجئه النظم إلى معنى أقل مما في نفسه.

القسم الأول: النداء من الله

أولاً: إظهار عظمة المنادي وعلو منزلته:

يخاطب الله بعض مخلوقاته منادياً إياها بنداء البعيد تنبيهاً على علو مقامه تعالى، وهذا النوع من النداء يناسب عظمة الله وعلوه عن خلقه، وكبرياءه وقدرته وعزته، فتستعمل فيه طريقة النداء الدالة على البعد. وقد ذكر الطيبي هذه الطريقة في النداء فيما نقله عنه ابن التمجيد، قال: «يراد بالبعد بحسب المنزلة والمرتبة إما من جهة المتكلم كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِي﴾ [هود: ٤٤] إظهاراً لعظمته وكبريائه، وإبداء لشأن عزته، وتهاونا بالمنادى، وتبعيداً له»^(١). فنداء البعد في الآية أفاد بعد منزلة الداعي وعلوها وهوان المدعو وحقارة شأنه على الله، وحقارة الشأن هنا حقارة مخلوق بالنسبة للخالق، وليست حقارة بسبب ذنب أو جرم.

ولعل منه قوله تعالى - آمراً النار-: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] وكذلك قوله تعالى آمراً الجبال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ۗ يٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ۗ وَالنَّارُ الْحَدِيدُ﴾ [سبأ: ١٠]. وهذه الآية بالإضافة إلى ما فيها من تعظيم الله لمنزلته وبيان علو قدره، فإن فيها "من الفخامة ما لا يخفى حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء الذين إذا أمرهم بالطاعة أطاعوا، وإذا دعاهم أجابوا إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد إلا وهو منقاد لمشيئة الله تعالى، ولو قال آتينا داود منا فضلاً تأويب الجبال معه والطير لم يكن فيه هذه

(١) حاشية ابن التمجيد ٣٤٨/٢.

الفخامة" ^(١). وذلك أن تلك المخلوقات التي تكبر في صدور الناس إذا نوديت بنداء البعيد كان في ذلك بيان لكبريائه وعظمته تعالى، وأنها على عظمتها وشدتها ليست تساوي عند عظمة الله وقدرته شيئاً وإنما هي مأمورة طائعة ولعل هذا هو المراد بالفخامة في كلام النسفي الآنف.

وأمر آخر هو أن نداء هذه المخلوقات ثم إتباع نداءها بأمر لا تملك فيه إلا الطاعة والتذلل؛ قد يستفاد منه التعريض بالإنسان الذي كثر نداؤه في القرآن بأساليب أقوى تنبيهاً وتذكيراً مما نوديت به وكانت استجابتها أسرع وأقوم من استجابة الإنسان.

إن الطريقة التي نوديت بها هذه المخلوقات تختلف عما نودي به الإنسان مؤمنهم وكافرهم، فلم تناد بنداء البعيد (يا أيها) وإنما نوديت بـ(يا)، وقد ذكر البيانون أن النداء بطريقة (يا أيها) إنما كثر في كتاب الله "لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب المبالغة لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيهِ وعظاته وزواجره ووعدهِ ووعدهِ واختصاص أخبار الأمم الدارِجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالأكّد الأبلغ" ^(٢). فأتضح أن نداء هذه المخلوقات من غير ذوات التمييز خلا من التوكيد والتنبيه بما يشعر بأنه لا حاجة إلى تنبيها كما ينبه ابن آدم، وفيه ما فيه من التعريض بكفر الإنسان ومعصيته.

(١) تفسير النسفي المسمى "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" للإمام عبد الله بن أحمد النسفي ٣٦٣/٢، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) الكشاف ١/٢٢٦.

واحتمال آخر هو أن نداء الإنسان لما كان مقدمة لأمر أو نهي يتعلق بأعظم الأمور وهو العبادة جاء مصدرا بالتنبيه والتوكيد، أما هذه المخلوقات فقد برئت من الأمانة التي حملها الإنسان فنداؤها حال من التنبيه إلى عظم الأمر المدعو له.

وإذا كان التنبيه والتأكيد في النداء يشير إلى تنزيل المنادى منزلة الغافل الساهي عما نودي له، فإن ذلك غير محتمل في نداء النبي عليه السلام، فلم يناد إلا بقول: (يا أيها النبي) و(يا أيها الرسول)، وقد أشرنا من قبل إلى قول القونوي: « ناداه بالنبي كما ناداه بالرسول في بعض المواضع، ولم يناده باسمه العلمي قط... فإن مواجهة العظماء بأسمائهم ليست من عادة الكرماء... وأما طريقة البعد فلكون المدعو له أمرا ثقيلا في نفسه وإن كان سهلا بتوفيقه»^(١). فنداء النبي أريد منه الإشارة إلى ما في القلب من الفضيلة، ولأنه لا ينادى إلا بقول: (يا أيها) فإنه يحمل التنبيه والتأكيد فيه على التنويه بالأمر المنادى له مع تعظيم المدعو. والله أعلم.

وقد يكون نداء إبليس بنداء البعيد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا بَلِيسَ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر ٣٢] وقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا بَلِيسَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥] قبل إخراجهم من الجنة؛ داخلا فيما ذكره البيانين من أن نداء البعد قد يستعمل في نداء غير المتراخي إذا أريد بيان انخطاط شأنه وبعده عن مجلس الحضور^(٢). وفي الاستفهام التابع النداء

(١) حاشية القونوي ٢٨٩/١٥ - ٢٩٠، ويراجع في ذلك ص ١٧١ من هذا البحث.

(٢) ينظر لذلك مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص ٣٣٤/٢).

معنى التوبيخ . مما يؤكد أنه نودي لبيان حقارته وتوبيخه على معصيته . وقد كان خطاب الله ونداؤه لإبليس وهو في الجنة وإبليس - نعوذ بالله منه - لم يكن متراخيا بعيدا ونداء الله له حاضر مسموع، لأنه لم يكن عوقب حينئذ بالإخراج من الجنة، بدليل أنه أجاب - عاصيا والعياذ بالله- بما حكى عنه القرآن بقوله: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٣٣] .

ثانيا: نداء التشريف والتكريم:

لقد نادى الله خلقه في القرآن الكريم، وهو نداء البائن من خلقه، وإن كان معهم بعلمه، فنداؤه تعالى لهم نداء من علو، إلا أنه لما كان سبحانه معهم بعلمه وقدرته فإن استعمال حرف النداء (يا) الموضوع لنداء البعيد حينئذ إنما هو استعمال مجازي، هذا الذي جرى عليه كلام أهل العلم من البلاغيين^(١) إذ نرى كلامهم عن نداء الله لخلقهم على أنه خطاب للقريب استعمال فيه النداء بأداة البعد، وذلك مبني على ما تقدم من قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] وقد خاطب سبحانه رسله وأنبياءه

(١) ينظر لذلك التلخيص وشروحه (٣/٣٣٣ وما بعدها، والمطول لسعد الدين التفتازاني ٢٤٤، لم تحدد طبعته، الناشر المكتبة الأزهرية للتراث، مصر. والتبيان في البيان للإمام الطيبي ٣٣٦، بتحقيق عبدالستار زموط، لم تحدد طبعته، دار الجبل بيروت، ومفتاح تلخيص المفتاح لشمس الدين الخلخالى ٣٦٧، بتحقيق د. هاشم محمد هاشم، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر. فيض الفتاح على نور الإقحاح، لسيدى عبد الله بن الحاج الشنقيطي ٢٥٤/١، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، لم يحدد مكان الطباعة.

وصالحي الخلق وعموم العباد والكفار والمشركين والمنافقين مناديا لهم. وخاطب بالنداء غير البشر من جن وجمادات.

وعُني القرآن الكريم بشأن الأنبياء ورسالاتهم وبيّن تعزير الله لهم ، وأعلن ذكرهم في أمهم. و يخبرنا القرآن بنداء الله لهم فيما يوحى إليهم لشدّ أزرهم وتقوية عزائمهم، كما أنه يزيدهم شرفا وتكريما.

وكان نداء آدم في الجنة نداء تشرّيف وتكريم، فكأن في النداء باستعمال (يا) المفيد للبعد إعلانا وتنويها بشأن آدم. قال تعالى: ﴿ قَالَ يَتَّادُمُ أَنبِيَّهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ [البقرة: ٣٣] وقال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَتَّادُمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥] فإنه سبحانه أقرب إلى الإنسان من جبل الوريد، لكن جاء النداء في الآيتين بأداة البعد (يا)، ليتبين أن استعمالها إنما هو " للتنويه بشأن آدم وإظهار اسمه في الملأ الأعلى حتى ينال بذلك حسن السمعة مع ما فيه من التكريم عند الأمر" (١). فحين يخاطب آدم بندائه بما ينادى به البعيد فإن ذلك ليس لغفلة آدم أو سهوه وإنما هو إعلام للسامع بمكانة المنادى فهو تشرّيف وتكريم له وإشهار لذلك التشرّيف والتكريم على الأسماع. ونلاحظ أن خطاب الله لآدم بعد إزلال الشيطان له خلا من هذا النداء وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦] فعلم أن النداء، كان لتشرّيف آدم ورفع شأنه والتنويه به. وكثيرا ما يقترن نداء التشرّيف بذكر الصفات الكريمة والأسماء الحسنة للمنادى، فيزداد تشريفا وذلك لأنه يخاطب المنادى بأفضل وأحب صفاته لنفسه

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور ١/٤٢٨، غير محدد الطبعة، ١٩٨٤، الدار التونسية، تونس.

وأعلاها صيتها، ويتبالغ مقدار التشريف كلما كان النداء متبوعاً بأمر جليل، فإن الإعلام والتنويه بشأن المناذى في مقام تكليفه يوحى بعظم ما كلف به، فيكون تعظيم المناذى ذريعة لبيان عظم ما نودي لأجله.

لذلك فإن نداء التشريف للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، لم يأت بصريح اسمه وإنما كان بما رفع الله به شأنه وفضله به على سائر خلقه وهو نبوته ورسالته عليه السلام، فكان نداء القرآن بـ (يا أيها النبي) ، و (يا أيها الرسول) ، تنويها بعظم منزلته رسولا نبياً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٥٥] وقال تعالى مخاطباً النبي بأمر عظيم هو التقوى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] حيث نادى نبيه بحرف نداء البعيد تعظيماً له، كما رأينا نداءه تعالى لآدم تنويهاً بذكره. ولأن وراء النداء أمراً عظيماً هو التقوى. قال القونوي: « ناداه بالنبي كما ناداه بالرسول في بعض المواضع، ولم يناده باسمه العَلَمي قط... فإن مواجهة العظماء بأسمائهم ليست من عادة الكرماء... وأما طريقة البعد فلكون المدعو له أمراً ثقيلاً في نفسه وإن كان سهلاً بتوفيقه»^(١).

وفي قول القونوي: إن طريقة البعد^(٢) لكون الأمر ثقيلاً يؤيد كون نداء البعد تضمن تشريفاً وإعلاءً لمنزلة النبي عليه السلام، كما أنه يفيد أن المناذى مطلوب منه أن يجتهد في الأمر. وإذا كان البيانين قد جعلوا مثل هذا من تنزيل المخاطب منزلة ذي الغفلة لتقصيره لعظم الأمر المدعو له كأن

(١) حاشية القونوي ٢٨٩/١٥ - ٢٩٠.

(٢) المقصود بطريقة البعد هو النداء بحرف (يا) الموضوع لنداء البعيد .

المنادى غافل عنه مقصر لم يف حقه من السعي والاجتهاد الكلي؛ فإن هذا ليس لازماً بل لا ينبغي أن يفسر به نداء النبي عليه السلام للأمر الثقيل، وإنما يحمل على معنى طلب الاجتهاد في الأمر دون النظر إلى ما قالوه من تنزيل للمخاطب منزلة الغافل المقصر. لأن هذا لا يليق بالنبي وبمنزلة النبوة. فحيث نودي عليه السلام بنداء البعد متبوعاً بأمر عظيم فإن ذلك ذريعة لتعظيمه وأنه أهل لما كلف به، فالتشريف المفهوم من نداء البعد مقترن به تشريف آخر وهو عظم ما كلف به.

وعليه فإن نداء تشريف النبي عليه السلام بما ينادى به البعيد ينضم إليه أمران يؤكدان معنى التشريف، أحدهما: أن ينادى بنداء البعيد المؤذن بالتشريف عند ذكر مقامات النبوة وتكاليف الرسالة، والآخر: أن يُنادى بصفات التعظيم دون التصريح بالاسم.

وهكذا يساق نداء التكريم بطريقة البعد في الخطاب المتضمن تعظيماً للأمر الذي سيق له، وكأن عظم الخطاب التكليفي استدعى تهية الأمور بأن ينوه بشأنه بخطاب التكريم، كما في الأمر بالجهاد، إذ جاء في سياق ندائي استفتح بتكريم النبي عليه السلام وتشريفه بندائه بما ينادى به البعيد ثم سيق بعده الأمر بالجهاد، في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جُهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظُ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحریم: ٩] وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٍ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] فيتضح أن النداء في الآية اشتمل على نكستين أولاهما تكريم النبي عليه السلام بترك النداء بالعلمية إلى النداء بالنبوة وذلك تكريم له، والآخرى: نداء البعد لأن الأمر المدعو له أمر عظيم. كما يتضح أن من أغراض النداء التنويه بصفة المنادى، ولذا لم ينادَ عليه السلام باسمه العلمى في

القرآن كما بين أهل العلم وهو واضح من الاستقراء. وقول القونوي: « فإن مواجهة العظماء بأسمائهم ليست من عادة الكرماء » لا يعترض عليه نداء الأنبياء والرسول غير نبينا محمد في القرآن بأسمائهم لأن النداء بهاتين الصفتين - أعني الرسول والنبى - خصصتا في القرآن لمحمد عليه السلام، حتى لا يلتبس نداؤه بما يحكى من نداء غيره من الرسل والأنبياء، ولذا نودوا بأسمائهم العَلَمِيَّة. وذلك كله حكاية لنداء سابق على إنزال القرآن الكريم، والله أعلم.

ومن معاني التشريف والتكريم الملاطفة، فقد جاء ذلك في ندائه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ﴾ [المزمل: ١] وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ﴾ [المدثر: ١] وابن عاشور يعد النداء في سورة المزمل من أغراض السورة، وهو مما يؤيد معنى التكريم بطريق الملاطفة، فيقول: « الإشعار بملاطفة الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بندائه بوصفه بصفة تَزْمِلُهُ »^(١). وذكر كذلك أن في النداء اعتناء بما سيلقى إلى المخاطب من كلام إذ يذكر أن « الأصل في النداء أن يكون باسم المناذى العلم إذا كان معروفا عند المتكلم، فلا يعدل من الاسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلا لغرض يقصده البلغاء من تعظيم وتكريم نحو: (يا أيها النبي) »^(٢). وهذا الغرض يجري في كل نداء نودي به النبي عليه السلام لأنه لا ينادى لغفلة أو انحطاط منزلة، وإنما هو من ملاطفة النبي عليه السلام تكريما له وتشريفا لمنزلته.

ونداء النبي بهذه الصفة التي يعظم بها قد يلمح فيه إشارة إلى أهمية ما يدعى إليه. فيكتسب الأمر خصوصية بسبب من نودي لأجله، إذ كان المناذى حينئذ

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٥٤.

(٢) المصدر السابق.

هو النبي عليه السلام. كما في آيتي الحز على الجهاد. وفي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا
الَّتِي قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيدِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفَنَّ
فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩] ففي هذه الآيات افتتاح بنداء
النبي عليه الصلاة والسلام "تنبيهها على أن ما سيذكر بعد النداء له مزيد
اختصاص به" (١). وهكذا تكتسي الأمور مزيد تخصيص واهتمام إذا كانت
مصدرة بنداء النبي عليه السلام وذلك لشرف المنادى.

وإذا لمنا الفرق بين الرسول والنبي كما بينه أهل العلم (٢) - وقد جمع نبينا
محمد عليه الصلاة والسلام الصفتين كليهما - تبين لنا لم نودي في موضعين
بـ(يا أيها الرسول) وفي سائر مواضع النداء نودي بـ(يا أيها النبي)، فالنداء
بصفة الرسالة يستدعي مقتضيات الرسالة من التبليغ بلا توان والدعوة بكل
وسيلة، مع ما يستلزمه ذلك من الصبر على الأذى والتوكل على الله وهو
العاصم من أذى الناس. ولذا قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] ونظيره في نفس
السورة قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْرُوكَ الَّذِينَ يُسَكِّرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾
[المائدة: ٤١]. بما ينبغي أن يصبر عليه من مقتضيات أداء الرسالة.

(١) المصدر السابق ٣١٥/٢١.

(٢) يفرق أهل العلم بين الرسول والنبي بأن "الرَسُول هو من جاءَ بشرع جديد إلى قوم كافرين،
والنبي هو من بعث بشريعة رسول قبله ليحدثها، ويحيي معالمها، فهذا مأمور بالبلاغ الجديد المستأنف
لقوم كفار، وهذا مأمور بالبلاغ للمؤمنين الذين ينتمون إلى شريعة سابقة، ولكنهم غيروا وبدلوا
وضلوا وانحرفوا"، ينظر لذلك: فيض التقدير شرح الجامع الصغير لمحمد بن عبد الرؤوف
المنأوي/١، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.

وفي نداء الله لإبراهيم عليه السلام ما يفهم تشریف إبراهيم وتكريمه، إذ نوذي وقد أسلم ابنه ليذبحه، وفي تلك اللحظة التي كان يُمرّ فيها الشفرة على نحر ابنه ليفعل ما رآه في المنام من أمر الله له بذبحه، يناديه الله إكراما له على صبره على هذا الابتلاء العظيم، وتبشيرا له بفداء ابنه من الذبح جزاء إحسانهما وطاعتهما، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمُؤْمِنُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٧] وفي سبق النداء بأن المفسرة ما يشبه صريح الخطاب، وإبراز اسم المنادى للتنويه به في مقام الطاعة.

وجدال إبراهيم للملائكة في قوم لوط لم يجرمه من ثناء الله عليه وتعقيب ذلك بندائه له ليأمره تعالى بالإعراض عن الجدال في أمر غير مردود قضاؤه. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا عِدَابٌ عَذْبٌ غَيْرٌ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٤-٧٦].

قال القونوي: «النداء بصيغة البعد للتفخيم»^(١). وتفخيم ندائه عليه السلام تشریف له وتكريم من الله.

أما كليم الله موسى عليه السلام فقد ناداه الله في القرآن الكريم كثيرا، وكان نداء الله له في كثير من الآيات لتأنيسه واللفظ به وإدخال الطمأنينة إلى نفسه، إذ كثيرا ما ترد الآيات يعقبها نداء الله له ليذهب عنه الروع، فمن ذلك أنه لما أفاق من صعقته بعد أن تجلى ربه للجبل، كان في غاية الخوف والوجل،

(١) حاشية القونوي ١٦/٣٠١.

فجاء النداء "للتأنيس وإزالة الروع" ^(١)، إذ يقول تعالى: ﴿ قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٤] وفي الآية ما يعمق معنى التكريم والتشريف وهو أن جملة الطلب التي غالبا ما تعقب النداء؛ تزكية لموسى وبشارة له باصطفاء الله له على الناس بأمرين عظيمين هما الرسالة وكلام الله له مشافهة.

ونظيره ما ورد من ندائه عليه السلام في غير ما آية من سورة طه، ولقد كان المعهود في النداء أن يتبع بأمر أو نحوه، إلا أن نداء الله لموسى في سورة طه يكاد يخلو من الأمر بل هو نداء للتقريب والتأنيس ولننظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنهَا تُودِي يَمْوَسَّىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١١-١٢] حيث كان كلام الله لموسى بغير واسطة من الملائكة، فنودي هبئة لنفسه ولبه إلى الأمر العظيم الذي يعقب النداء وهو تكليم الله له.

ثم تليها آيات أخر في ذلك الموقف العظيم ويتكرر فيها النداء برغم قرب موسى من ربه وكلام الله له، إلا أن تلك النداءات كانت لتأنيس نفس موسى وإعداد قلبه لمطالب الاصطفاء. قال تعالى: ﴿ وَمَا تَلَكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَّىٰ ﴾ [طه: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَيْهَا يَمْوَسَّىٰ ﴾ [طه: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَّىٰ ﴾ [طه: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿ فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدْرًا يَمْوَسَّىٰ ﴾ [طه: ٤٠]. كل هذه الآيات التي كلم الله فيها موسى وتخللها نداء مع قرب موسى من ربه لم تكن لبعده موسى أو غفلته، وإنما كانت لتأنيسه وتطبيب فؤاده بعد أن قضى برهة من الدهر شريدا خائفا عائدا إلى من يخشى

(١) التحرير والتنوير ٩/٩٥.

على نفسه منهم. وكذلك الآيات التي نودي فيها موسى عليه السلام في سورتي النمل والقصص كان النداء فيهما مفعما بالتأنيس والتقريب واللطف، وإزالة الروع وتطبيب النفس^(١). ولا ريب أن الملاحظة أوضح حين يعلق الأمر بالنداء أو يقع خاتماً لجملة الخطاب، وكل من اللطف والتأنيس يضرب في التكريم والتنويه بعطن.

وقد ذكر بعض البيانين أن من أغراض نداء القريب بطريقة البعد "الحرص على إقبال المنادى، فصار إقبال المنادى كالبعيد لأن النفس إذا اشتد حرصها على الشيء صارت كل ساعة قبل وقوعه في غاية البعد فتقول يا غلام بادر بالماء فأنا عطشان"^(٢). وجعل الدسوقي^(٣) من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿يَمُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ [الفصص: ٣١] وفيه نظر إذ لا يتصور وصفه تعالى باشتداد الحرص وصيرورة النفس في غاية البعد، والله أعلم.

وفي ندائه تعالى لداود عليه السلام بيان لحصول العفو والرضاء من الله بعد مغفرته له ذنبه الذي ألم به، إذ عقب الإخبار بالمغفرة بنداء يشعر بالتكريم والتفضل، يؤيد ذلك الجملة الخبرية التابعة النداء المؤذنة بشارة الاستخلاف في الأرض، على خلاف المعتاد من تعقيب النداء بجملة طلبية تكون أمراً في الغالب، كما قال تعالى: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦] يضاف إلى ذلك ما يوحي به النداء المباشر الخالي من الحكاية، إذ ينتقل الحديث من حكاية ماضية إلى نداء يشبه استحضر صورة الموقف،

(١) ينظر لذلك الآيتان ١٠ و ٩ من سورة النمل، والآيتان ٣٠ و ٣١ من سورة القصص.

(٢) مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص ٢/٣٣٤).

(٣) ينظر لذلك حاشية الدسوقي (ضمن شروح التلخيص ٢/٣٣٤).

وكان النداء واقع مسموع، وفي ذلك مزيد عناية بالنداء والمنادى، وتنبه إلى فورية البشارة بعد المغفرة، وتوليته الملك بلا تراخ بينها وبين مغفرة الذنب. وقد نادى الله كلمته عيسى بن مريم عليه السلام لإخباره بأنه متوفيه ورافعه عن كيد الذين يتربصون به ليقتلوه، والنداء معقب بخبر قبضه تعالى لروح عيسى ورفعته إليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنِي مَرْيَمُ لَا خِيفُ عَلَيْكَ مِنْهُ وَلَا تَحْزُنْ عَلَيْهِ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] قال الزمخشري: «ومعناه: إني عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخر أجلك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم»^(١). ومن هذا يتبين أن النداء جاء توطئة لتكريم عيسى برفعه إلى الله، وصونه عن الكافرين، وهيئة لنفسه لقبول خبر القبض.

ومن زيادة تشريف المنادى بالنداء؛ إضافة صفته تلك إلى الله تعالى، لأن العبودية أشرف صفة للمخلوق. كما في قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] واختيار صفة العبودية والتذكير بها يجعل الأمر المدعو إليه أكثر تعظيماً، وذلك أن المخاطب خوطب بصفة تستلزم الإتيان بمضمون النداء. والملاحظ أن النداء بالأوصاف يوحى بتعليق الحكم المسوق لأجله النداء بتلك الأوصاف، وفي هذا تنبيه لعله إيراد الوصف وإثاره على غيره من أوصاف المنادى. وعلى الرغم من أن هذه الصفة - أعني العبودية - يتميز فيها المؤمن عن الكافر فقد شمل النداء بها الفريقين. إلا أنه يتضح تخصيص المؤمنين في النداء في الدنيا بغير (الذين آمنوا)، والملاحظ أنه

(١) الكشاف/١/٤٣٣.

أخص من قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَفُؤُولَا أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وقد يكون حذف أداة النداء مما يوحي بقرب منزلة المنادى ويشعر بالتلطف له، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فقوله: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ بغير أداة إشعار لخصوص منزلتهم وقربهم من الله وتكريمهم بما لم يكرم به غيرهم، وإن كان المنادى هنا محتملاً لأن يكون منصوباً على المدح، أو على الاختصاص، والاختصاص من النداء، إلا أن النداء اختاره الزمخشري وآثره على غيره، إذ لم يذكر من الوجوه المحتملة إلا النداء وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣] واعتبره القونوي أولى من النصب على المدح أو الاختصاص^(١). فالنداء المحذوف الأداة يشعر بتكريم المنادى وتقريب منزلته والتلطف والاحتفاء به.

وبهذا يقل احتمال النداء في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] لعدم ظهور دواعي الاحتفاء بالمنادى إلا على وجه مرجوح، ويؤيد ذلك قراءة أبي عمرو^(٢) في الآية التي قبلها ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُوا بِالْغَيْبَةِ﴾، فيكون انتصاب ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ على إضمار "أعني". وقد ذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن ﴿هَؤُلَاءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ﴾

(١) ينظر لذلك حاشية القونوي ١٠/١٤٣.

(٢) كتاب الإقناع ٢/٦٨٤.

أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ ﴿٨٥﴾ [البقرة: ٨٥] منادى محذوف منه حرف النداء^(١). ويرجح استبعاد النداء السبب الأنف الذكر وهو انعدام ظهور دواعي الاحتفاء، يؤيد ذلك أن فريقاً من أهل العلم منعوا تعري اسم الجنس واسم الإشارة من حرف النداء^(٢). والله أعلم.

ومما يمكن أن يلحق بهذا الغرض - أعني ملاطفة المنادى - ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتُّ إِذْ نَزَّ إِلَيْهِ لَيْلَ لَيْلٍ سَاجِدًا وَفَاقِيمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] على قراءة التخفيف، وقرأ بها نافع، وابن كثير، وحمزة، وغيرهم^(٣)، وقد استحسّن الفراء هذا الوجه، فقال: «قرأها يحيى بن وثاب بالتخفيف. وذكر ذلك عن نافع وحمزة وفسروها: يريد: "يا من" هو قانت. وهو وجه حسن، العرب تدعو بألف، كما يدعون بـ(يا)»^(٤)، فإنه لما كان المنادى قانتاً مداوماً على القنوت كان قريباً من الله فناسب أن ينادى بحرف النداء المخصص للقريب. وإذ حملت الهمزة في هذه القراءة على أنها للاستفهام فلا نداء حينئذ.

ثالثاً: النداء لعظم الأمر المدعو له:

ينادي الله سبحانه عباده تنسيباً على عظم الأمر الذي نودوا من أجله،

(١) ينظر لذلك البيان في إعراب غريب القرآن لأبي البركات عبدالرحمن الأنباري ١/١٠١، بتحقيق بركات يوسف هبود، لم تحدد طبعته، دار الأرقم، بيروت. والتبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري ١/٨٦، بتحقيق علي محمد الجاوي، لم تحدد طبعته، مطبعة البابي الحلبي مصر. والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ١/٤٦٧، لم تحدد طبعته، المكتبة التجارية، مكة المكرمة. حاشية الصبان على شرح الأشموني ٣/١٣٦، لم تحدد طبعته. مطبعة البابي الحلبي، مصر.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) ينظر لذلك معاني القرآن للفراء ٢/٤١٦. والقراءة بأن يخفف الإدغام في (من).

(٤) المصدر السابق. (ومراده بالألف الهمزة).

والبيانون يذكرون أن الأمر العظيم يدعى له المناذى بأداة البعد إذا كان المناذى غافلا أو ساهيا، أو أن الأمر الذي دعي له أمر عظيم يستوجب بذل غاية الجهد واستقصائه للوفاء بحق ذلك الأمر.

وقد نادى الله نوحا عليه السلام في كتابه لعظم الأمر الذي نودي من أجله وهو نهيته عن أن يسأله ما ليس له به علم، إذ أراد نوح أن يشفع لابنه، فقال تعالى: ﴿ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود:٤٦] ويتبين عظم الأمر الذي نودي نوح له بمعونة اختلاف وجه الخطاب من البناء للمفعول إلى استعمال الصيغة التي يحضر معها الفاعل في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَنْتُوخُ ﴾ إذ سياق الأفعال قبل هذه الآية وبعدها جاءت كلها بصيغة البناء للمفعول، " قيل، وغيض، وقضي، وقيل " في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأَهُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [٤٤] ونادى نوح ربه، فقال رب إن أبنى من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحكيم ﴿٤٥﴾ قال يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قال رب إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قيل يَنْتُوخُ أَهْبِطْ بِسَلْمٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَمَتَّعُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨-٤٤﴾ [هود:٤٤-٤٨] إلا أن عتاب نوح انفراد بصيغة البناء للفاعل ﴿ قَالَ يَنْتُوخُ ﴾ ، وسط منظومة أفعال كلها بصيغة البناء للمفعول وذلك لهيبة الحضور، إظهارا لوجوب الانتهاء عن مثل هذا السؤال. مما يدل على أن النداء اختلف طريقه في هذه الآية عن الآيات السابقة واللاحقة، ولعل في مجيء

أفعال القصة بالبناء للمجهول إشارة إلى القضاء الكوني والأمر الأزلي الذي قضى به الله في الأزل من أمر الطوفان وما بعده باعتباره حدثاً مفصلياً في مسيرة البشرية.

ونلاحظ في النداء الآخر - الذي هو من سياق قصة السفينة بعد رسوِّها ثم هبوط نوح وحكاية نداءه بصيغة البناء للمفعول - استكمالاً لسياق القصة التي بدأ تعاضم أحداثها من قوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ﴾ ، ولا يخفى ما بين النداءين إذ الأول في معرض معاتبة نوح عليه السلام والآخر في مقام الرضاء والبشرى بالنجاة والسلام. وواضح أن الاختلاف في صيغة الفعل بين البناء للمفاعل والبناء للمفعول داخل سياق الأفعال أسهم في اختلاف مفاد الندائين والله أعلم.

وينادي الله المؤمنين بصفتهم التي يجب أن يكونوا عليها وهي الإيمان، وفي هذا النوع من النداء لمحة تكريم، وإيماء إلى فضيلة الصفة، وقد أشرنا إلى أن النداء بالصفة ناظر إلى ما في تلك الصفة من المقتضيات، مع عظم الأمر الذي نودوا له، فإذا خاطب الله عباده المؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإن وراء استحضار صفة الإيمان في ندائهم مقاصد تستوجب منهم العمل بما يقتضيه إيمانهم، ولذلك أتبع هذا النوع من النداء بالأوامر والنواهي والتوجيهات العظيمة، وقد نادى الله عباده المؤمنين بهذه الطريقة تسعين مرة في القرآن، وبقوله: ﴿أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١] مرة واحدة. وهو نداء في مجمله لبيان أوامر الله ونواهيه، تفهم من الجمل الطلبية التي تلي جملة النداء وهي داخلية في سياق النداء، سواء كانت طلبية حقيقة أو حكماً، وهذا من

خصائص ورود النداء على الجملة، إذ نجد أن الجملة بعد النداء في مثل ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] تشتمل على أمر أو نهي صريحين، أو تشتمل على ما يفهم منه أنه سيق مساق الأمر أو النهي وذلك لغلبة اقتران جملة الأمر أو النهي بالنداء في القرآن الكريم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُنِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] فالأمر بالصيام وفرضه على المؤمنين مهّد له النداء الموجه للمؤمنين بما تقتضيه صفة الإيمان التي نودوا بها من المبادرة للإتيان بمضمون الأمر على الوجه الأكمل، وقد ذكر بعض أهل العلم أنه جيء بالنداء والخطاب "جبرا لكلفة المشقة بلذة المخاطبة"^(١). وإذا كان النداء غرضه الأول تعظيم شأن الأمر المدعو له فإن احتمال كونه لجبر كلفة المشقة لا يمتنع والنكات لا تتراحم.

ومن صور نداء المؤمنين في القرآن أن يُنادوا بصفات أحص من صفة الإيمان وهي صفة العقل واللب، وقد جاء النداء عقب الجملة التي نودوا من أجلها، وهي طريقة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩] وفي قوله تعالى: ﴿وَتَكَرَّوْا فَاِنَّ خَيْرَ الْخَيْرِ النَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠] وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ

(١) حاشية القونوي ٣/٥.

إِنَّكُمْ ذَكَرْنَا [الطلاق: ١٠] وقال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] إذ المعهود أن يتقدم النداءُ جملةً الطلب وما في حكمها، إلا أنه في هذه الآيات جاء النداء عُقيب جملة الطلب، وهذه الطريقة وردت في القرآن الكريم في ست آيات يظهر أنه يراد بها تخصيص المنادى بعد عموم، فنداء ذوي الأبواب وقع في سياق الأمر بالتقوى، أو الترغيب فيها، فهو يشبه الاستدراك، أو يشبه البيان بعد الإبهام، إذ يساق الطلب وهو الأمر بالتقوى فيفهم منه عموم الأمر لكل مخاطب ثم يخصص الأمر في الخطاب بنداء أولى الأبواب، وكأنهم هم المعنيون دون غيرهم على أن الحقيقة أن الأمر بالتقوى عام لكل مخاطب إلا أن مجيء النداء بعد ذلك الأمر يوحي بأن الأولى بالاستجابة للأمر بالتقوى هو من خصص بالخطاب بعد عموم، وفيه ثناء على من اتقى. ولعل ذلك يرجع إلى أن علة الأمر هي القضية الأولى للمنادى، قال النسفي: «أي يا ذوي العقول يعني أن قضية اللب تقوى الله، ومن لم يتقه من الألباء فكأنه لا لب له»^(١).

ويتضح الفرق بين هذه الطريقة والطريقة السابقة، التي يستهل فيها الخطاب بالنداء، إذا علمنا أنه لو استهل الخطاب بالنداء من أول الأمر لكان توجيه النداء للمتقين دون من سواهم على معنى أن الأمر بالتقوى لم يوجه إلا لهم، إلا أنه لما جاء النداء بعد الأمر بالتقوى تبيّن أن الأمر بالتقوى عام وأن الاستجابة له والاتصاف به إنما هو لأولي الأبواب، ثم إن في هذه الطريقة تعريضا بغير المتقين وهو أن من لم يستجب للأمر فليس من أولي الأبواب. ولا يعكّر على هذا أن يكون الأمر بالنداء مقترنا بالفاء الموحية بالتعليل لما قبلها

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١١٢/١ الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، دار الكتب العلمية. بيروت.

المفهمة بأن الأمر بالتقوى مرتبط بما قبله لأن العبرة في هذا بعموم اللفظ، والأمر بالتقوى ليس مقيدا بسببية ما قبله أي أنه ليس مسببا عن قضية سبقته كما في آية المائدة، لأن القضية السابقة للأمر بالتقوى هي واحدة من موجبات الأمر بالتقوى وليست علة وحيدة للأمر.

وبذلك يتضح أهمية طريقة البعد في نداء المعني بالخطاب، لأن الأمر الذي استدعى الخطاب بلغ من الأهمية أن يوجه للخاصة من المخاطبين، وأن يوصف المعنيُّ به بأنبأ أوصاف من يمكن أن يوجه له الخطاب.

ومما كثر في القرآن من النداء لهذا الغرض؛ نداء الله للناس، إذ ورد في ستة عشر موضعا^(١)، ولا ريب أن الناس المقصودين في النداء بالنظر إلى عموم دلالة الكلمة؛ يدخل فيهم البر والفاجر، إلا أن ذلك ليس على إطلاقه، ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] يتوجه النداء إلى الناس جميعهم، المؤمن والكافر والمنافق، وغرضه تعظيم الأمر الذي نودوا له، فنزل عموم الناس منزلة الغافل الساهي، أو منزلة المقصر في الأمر، وكأن الآية تشير إلى المراد من الناس، وإلى الأمر الذي له خلقوا، ألا وهو أمر العباد، وهو أعظم ما يطلب من الناس، ولأجل عبادة الله خلقوا، فنداء الناس في القرآن من أبرز النداءات التي يظهر فيها استعظام الأمر حتى كأن المنادى مقصر فيه.

وقد يكون المراد بالناس الكافرين دون غيرهم كما في قوله تعالى:

(١) في القرآن واحد وعشرون موضعا لنداء الناس، ومنها ما هو على لسان الرسل، وما يهمننا هنا هو نداء الله لهم.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُٓ اِنَّكَ الَّذِي تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ لَنْ يَخْلُقُوْا ذُبَابًا وَّلَوْ اَجْتَمَعُوْا لَهُٓ وَاِنْ يَسْلُبْنٰهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئُوْهُ مِنْهُ ضَعُفَ الظَّالِمِ وَالْمَطْلُوْبُ﴾ [الحج: ٧٣] ويتلو نداء الناس بهذا الوصف أمر بعبادة أو حث على تقوى أو تحذير، أو تذكير بوعد الله، أو استدلال على عظمة الله^(١). ولعل السر في اختيار النداء بعلم الجنس "الناس" دون التصريح بالصفة الحقيقية التي هي "الكفر" يا أيها الكافرون" هو ترك المواجهة بصفة سيئة لم تنهياً نفوسهم لاستماعها، وهذا التعليل يؤيده أن النداء بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ كان في الأغلب الأعم في المكي^(٢) من السور، الموافق لبداية الدعوة المحمدية ونزول الوحي، قبل أن يرغب المؤمنون عن مكة مهاجرين إلى المدينة. وذلك بغرض استمالة قلوب الناس بالألوان التي يواجهونها بما تكرهه نفوسهم من التسمية بالكفر. فخطبوا بعموم ما يخاطب به سائر المدعوين للإسلام؛ استبقاء لفرصة إقبالهم على الإسلام، وفي هذه لفظة قرآنية عظيمة إذ لم يخاطبهم بصفة الكفر مع أنهم كافرون. ولم يرد صريح لفظ الكفر في ندائهم إلا في قوله تعالى أمرا نبيه أن يخاطبهم: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكٰفِرُوْنَ ﴿١﴾ لَا اَعْبُدُ مَا تَعْبُدُوْنَ﴾ [الكافرون: ١، ٢] وقد نودوا كذلك بصفة الجهل في قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ اَفَغَيَّرَ اللّٰهُ

(١) يضاف إلى الآيات السابقة، الآيات، ٢١ و ١٦٨ البقرة، ١٧٠ و ١٧٤ من سورة النساء،

يونس ٢٣ و ٥٧، الحج ١ و ٥٩ و ٧٣، لقمان ٣٣، فاطر ٣ و ٥٥ و ١٥٥، الحجرات ١٣.

(٢) جاء في الكشاف: "عن إبراهيم بن علقمة أن كل شيء نزل فيه ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ فهو مكّي،

و﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا﴾ فهو مدني" ١/٢٢٤. غير أنه ورد نداء ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ في المدني، وربما

تكون السورة مدنية والآية مكية. غير أن الذي لا خلاف فيه أن الغالب في نداء الناس كان لمشركي

مكة وإن شمل النداء غيرهم من الناس كالمؤمنين. كما في الآية ٢١ من سورة البقرة.

تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿ [الزمر: ٦٤] وإنما كانت الآيتان جواباً لما عرضه المشركون على النبي صلى الله عليه وسلم من عبادة أصنامهم عاماً ويعبدون الله عاماً، فلا يلحق بما ذكرناه من تجنب التصريح بصفة الكفر في نداءهم، وفي سبب نزول آية الزمر روي أنهم قالوا: « استلم بعض آلهتنا نؤمن بإلهك »^(١). قال أبو حيان: « لما كان الأمر بعبادة غير الله لا يصدر إلا من غبي جاهل؛ ناداهم بالوصف المقتضي ذلك »^(٢). ونجد في آية أخرى نداء لهم بوصف كفري، وهو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُونَنَّ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢] فلم يُنادوا بالكفر بل بوصفين خاصين. فنداؤهم فيه معنى التخصيص، لكيلا يفهم أن الأكل من شجر الزقوم عام للمجموعين، فنودوا لتخصيصهم بأن هذا جزاؤهم وحدهم، دون سائر المجموعين. والملاحظ أن هذه الآيات الثلاث الأخيرة ليست نداء صريحا من الله بل هو نداء أمر النبي عليه السلام أن يخاطبهم به.

ومن نودي بأداة البعد لبيان عظم ما نودي له؛ الجن، وقد ورد نداؤهم في القرآن حكاية لما سيكون في موقف الحشر، واستحضارا لتلك الصورة الفظيعة من التشهير بمجرميهم في عرصات القيامة^(٣) لأن المستقبل فيما يجبر به تعالى في حكم الماضي، من جهة تحقق وقوعه، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجَنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وقرن نداءهم بندااء الإنس في

(١) البحر المحيط ٢١٨/٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ذكر السعد وفريق من البيانين أن استحضار الصورة لا يتوقف على الماضي بل قد يقع استحضار الصورة المستقبلية، ينظر لذلك: المطول ١٧٢.

موضعين، والملاحظ أنه يُقدّم الجنُّ في مواضع نداء و يُقدّم الإنسُ في مواضع نداء أخرى، قال تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ اللَّهُ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وقال تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] ولعل تقديم الجن في النداء في الآيتين يوحي بأنهم الأجدر بالتنبه إلى مضمون النداء، ولأن استجابة الإنس أفضل وأسرع من استجابة الجن. ولا غرو فإن النبوة في الإنس، وإبليس من الجن.

وباستقراء مواطن ورود اسميهما مقترنين بطريقة العطف بالواو مساواة لهما في الإسناد في القرآن الكريم في غير النداء^(١) نلاحظ أنه يغلب تقديم الجن على الإنس في مواطن الضلال والعذاب، وتقديم الإنس في مواطن الطاعة والرحمة، وهو مما يدعم القول بأن الجن قدموا في النداء لفضل حاجتهم إلى الإبلاغ أكثر من الإنس، وكأن الجن هم الأحق بالتنبيه من الغفلة والإرشاد إلى عظم الأمر الذي دعوا من أجله. والله أعلم.

(١) ينظر لذلك الآيات: (١١٢) الأنعام، ٣٨ الأعراف، ١٧٩ الأعراف، ٨٨ الإسراء، ١٧ النمل، ٢٥ فصلت، ٢٩ فصلت، ١٨ الأحقاف، ٥٦ الذاريات، ٣٩ و٥٦ و٧٤ الرحمن، ٥ الجن). ففي سورة الأعراف قدم الإنس على الجن في مقام بيان عداوة الإنس والجن للأنبيا ولكن جعل الإنس مضافاً إليه وصف (شياطين) ليتبين أثر الشياطين في إضلالهم، وفي سورة الرحمن قدم الإنس في وصف بعض أحوال أهل الجنة، وفي سورة الجن قدم الإنس في مقام التزكية وأما باقي الآيات فقد قدم فيها الجن على ما ذكرناه عداية النمل إذ قدم فيها الجن على الإنس في غير مقام العذاب والضلال، ولكنه في مقام الإخضاع والقهر لأنهم أقوى من الإنس فقدموا لبيان ضعفهم وحقارتهم أمام قدرة الله. والله أعلم.

ومما هو كالشائع في النداء المراد به تعظيم الأمر المنادى له، أن ينادى المخاطب بصفة تتعلق بمضمون الأمر الذي سيق له الخطاب، بعد أن ينزل منزلة البعيد تأكيداً لعظم الأمر المستوجب للخطاب، وقد تبين فيما سبق من نداء الله لنبيه محمد عليه السلام أن النداء بالصفة دون العلمية يتضمن إشارة إلى ما في الصفة من معنى يتصل بما سيق له النداء من أمر أو نهي أو نحوهما. وهذه الطريقة تنطوي على مبعث الاستجابة وإقبال المدعو على الداعي بكل قلبه ووعيه.

ولو نظرنا إلى نداء الله تعالى للبشر في القرآن بوصفهم أبناء لآدم؛ لرأينا كيف ينطوي النداء على مضامين تتعلق بما في بني آدم من صفات أبيهم، واحتمال وقوعهم فيما وقع فيه أبوهم. فقد أخرج الله سبحانه آدم عليه السلام من الجنة بسبب معصيته لربه وإزلال الشيطان له، فكان من عواقب ذلك أن بدت له ولزوجه سواهما، وكانت سنة في بني آدم. والتنبيه إلى خطر هذا الأمر يجعل المخاطب بهذا الأمر كالساهي أو الغافل الذي يخاطب بالنداء. والقرآن الكريم في تحذيره لبني آدم يشير إلى مكيدة الشيطان لهم، وفي سورة الأعراف وردت قصة إخراج آدم عليه السلام من الجنة، ثم جاء التحذير منه تعالى في أربع آيات متقاربات من نفس السورة نودي فيها الإنسان بصفته ابناً لآدم، ثم يتلو النداء أمر وتحذير وامتنان، قال تعالى: ﴿يَبْنَىْ ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تَكُمُ وَرِدْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] نودوا بهذه الصفة للتنبيه إلى ما كان من أبيهم حين أطاع الشيطان ونزع لباسه عنه، ففي الآية امتنان بما ستر الله به عورة بني آدم، واستهلال الامتنان والتنبيه بالنداء فيه

إشارة إلى قصة أبيهم مع إبليس وتحذير لهم من مكائده، لتأتي بعد ذلك الآية الأخرى مكررة للنداء ومحدرة من فتنة الشيطان، قال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَبَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧] ثم يتكرر النداء الثالثة بتلك الصفة المؤذنة بما يهيئ للأمر المسوق خلف النداء، وهم على ذكر من قصة أبيهم، قال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ حُدُوًا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] وكان النداء الرابع ليذكركم بأن الرسل ورسالاتهم جاءت بإذن الله بعد خروج آدم من الجنة وامتحان الله لذريته بفتنة الشيطان في الدنيا، واختبارهم برسالات الأنبياء ليتبين من يستحق الجنة مما ليس أهلا لها. قال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥] كل هذه النداءات المتتالية منبثقة من سياق إخراج آدم من الجنة، فلما أريد تحذير أبنائه من الشيطان المتسبب في هذا الخروج نودوا بصفتهم بنين له، ليكون ذلك أوقع في قلوبهم عند تحذيرهم من الشيطان، وعند دعوتهم لاتباع هدي الرسل.

وقد بين ابن عاشور أن من فوائد النداء بعنوان "بني آدم" في خطابهم استثارة الحمية في نفوسهم للثأر ممن عادى أبيهم، والاحتراس من مكائده. قال: «ابتدئ الخطاب بالنداء ليقع إقبالهم على ما بعده بشرائش قلوبهم، وكان لاختيار استحضارهم عند الخطاب بعنوان بني آدم مرتين وقع عجيب، بعد الفراغ من ذكر قصة خلق آدم وما لقيه من وسوسة الشيطان: وذلك أن شأن الذرية أن تثأر لأبائها، وتعادي عدوهم، وتحترس من الوقوع في

شركه»^(١). وهذا المعنى داخل في أهمية الأمر الذي نودوا من أجله.

ويظهر في نداء الله لأهل الكتاب أنه جاء في كثير من المواضع في مقام المحاجة والمجادلة لتبكيتهم والتسجيل عليهم، إذ نرى نداءهم في سورة آل عمران يتصدر سياق جمل استفهامية غرضها التعجب والإنكار عليهم إنكاراً توبيخياً، وهذه الأغراض المتعلقة بالجملة الاستفهامية لا تخرج غرض النداء الأصلي عن عظم الأمر الذي دعوا له لأن نداء القرآن لهم كان في معرض دعوتهم للإسلام.

ولنتأمل قوله تعالى: ﴿يَتَّأْهِلَ الْكُتَّابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥] قال أبو حيان: «معنى الاستفهام الإنكار»^(٢) وفي قوله تعالى: ﴿يَتَّأْهِلَ الْكُتَّابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِبَايَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ شَاهِدُونَ﴾^(٣) «يَتَّأْهِلُ الْكُتَّابُ لِمَ تَلْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» [آل عمران: ٧١، ٧٠] "أنكر عليهم كفرهم بآيات الله وهم يشهدون أنها آيات الله"^(٣). وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّأْهِلَ الْكُتَّابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِبَايَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾^(٤) قُلْ يَتَّأْهِلَ الْكُتَّابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨-٩٩] قال القونوي: «والاستفهام في الموضعين لإنكار الواقع وهو التوبيخ والتقريع»^(٤).

(١) التحرير والتنوير ٧٣/٩.

(٢) البحر المحيط ١٩٧/٣.

(٣) المصدر السابق ٢٠٦/٣.

(٤) حاشية القونوي ٢٤٩/٦.

وهذه الآيات المصدرة بالنداء متلوّاً بالاستفهام يتضح أن للاستفهام الوارد فيها غرضاً عاماً هو التوبيخ والإنكار والتقريع، كما هو واضح في كلام أهل العلم. وإذا كان الغرض الأول من نداء أهل الكتاب في هذه الآيات هو دعوتهم للإسلام، فإن من أغراض تخصيص ندائهم بـ(أهل الكتاب) - دون غيره مما يتصفون به كالكفر والنسب^(١) والعبودية والإنسية - التنبيه على مخالفتهم لما في الكتاب الذي يُنسبُون إليه حين يجادلون النبي عليه السلام، مع ادعائهم أنهم مستمسكون به وأهم على حق، وقد جاء القرآن ليهيمن على ما في كتابهم من حق فكيف يجادلون فيه بالباطل، ومن هنا كانت الآيات متضمنة استفهامات موجهة إليهم لتوبخهم وتنكر عليهم أباطيلهم وما يزعمون، ويرفد هذه المعاني تصدير سياقها بالتعريض المفهوم من النداء بقوله: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ﴾؛ لأهم يعلمون أن في كتابهم ما يصدق محمداً عليه السلام ورسالته. كما أن في طريقة البعد إيذاناً بأهمية وعظم الأمر الذي نودوا له.

وتخصيص أهل الكتاب في مخاطبتهم بالنداء ودحض حججهم يوحى ببطان ما لدى من سواهم ممن ليس لهم كتاب ولا أثاره من علم وثنيين وغيرهم، وقد كانت العرب تعظم ما لدى أهل الكتاب من علم، فإبطال ما عند أهل الكتاب يخبر بطريق الكناية عن بطلان ما سواه، وللنداء مدخل في هذا الوجه، قال أبو حيان: «تخصيص أهل الكتاب بالذكر دون سائر الكفار لأهم هم المخاطبون في صدر هذه الآية المورد الدلائل عليهم من التوراة والإنجيل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والمجابون عن شبههم في ذلك، ولأن معرفتهم بآيات الله أقوى لتقدم اعترافهم بالتوحيد وأصل النبوة، ولمعرفتهم بما في كتبهم

(١) المقصود بندايتهم بالنسب أن ينادوا بـ(يا بني آدم)، أو (يا بني إسرائيل).

من الشهادة للرسول والبشارة به»^(١).

ومن اللافت أن نداء أهل الكتاب في القرآن جاء كله على هذه الطريقة، عدا آية واحدة جاءت بقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧] والمتأمل يرى فرقا بين الاستعماليين، إذ جاء نداؤهم بـ(يا أهل الكتاب) في آيات المجادلة والمحااجة، وتفنيدهم بأبائهم، فكان القرآن يخاطبهم بأهل الكتاب وفي إضافتهم إلى الكتاب معنى غير المعنى المفهوم من وصفهم بأنهم أوتوا الكتاب، ذلك أن آيات المحااجة والمجادلة فيها إمهال لهم وإرخاء للعنان بنسبتهم إلى علم الكتاب فأضيفوا إليه على اعتبار المعنى الملحوظ في الإضافة وهو معنى شبه الملكية فأرخاء العنان لهم بوصفهم أهلا لحمل الكتاب والمجادلة والمحااجة به. فلما انقطع جدالهم ودحضت حججهم؛ جاء إلزامهم بالإيمان في سورة النساء -وهي نزلت بعد آل عمران^(٢)- في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ؕ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧] وهو إلزام لا يناسبه وصفهم بعلم الكتاب وأهليته، فتركت الإضافة إلى الموصول، ليظهر معنى أليق بالمراد وهو أنهم لم يتمسكوا بما في

(١) البحر المحيط ٣/٢٧٩.

(٢) حزم كثير من أهل العلم بأن سورة النساء مدنية، وأن سورة آل عمران نزلت قبلها، ولهم في ذلك أدلة قاطعة منها حديث عائشة رضي الله عنها، الذي في البخاري: «ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده صلى الله عليه وسلم»، ينظر: فتح الباري ٨/٢٣٧ للحافظ ابن حجر، بتحقيق الشيخ عبد العزيز ابن باز وآخرين، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، دار الباز، مكة المكرمة. وبنائوه عليها صلى الله عليه وسلم كان بعد الهجرة اتفاقا، قاله الألوسي (ينظر تفسير روح المعاني ٤/١٧٨)، ونقل ابن عاشور عن الجمهور أن النساء نزلت بعد آل عمران (ينظر التحرير والتنوير ٤/٢١١).

الكتاب، وإنما هم أوتوه ثم لم يحملوا علمه. ويعضده قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَايَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

وفي الآيات السابقة نرى نداء أهل الكتاب في مقام الحاجة والمجادلة لدعوتهم إلى الإسلام. أما نداؤهم باسم بني إسرائيل - وهو داخل في النداء لعظم الأمر - فلم يرد إلا في مقام الامتنان وتذكيرهم بنعمة الله عليهم وإنجائهم من آل فرعون؛ ليكون أدعى لاستجابتهم لأمر الله فيتبعوا ما جاء به محمد عليه السلام. وقد يلحظ مجيء هذا النداء متلوياً بذكر تلك المنة، إذ ورد ذلك في ثلاث آيات بلفظ واحد: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنَّي فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠]. ومثلها الآيتان (١٢٢ و٤٧) من نفس السورة، وفي سورة طه ذكر الامتنان بالإنجاء صراحة: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلَوى﴾ [طه: ٨٠] هذه الآيات لم يناد الله بني إسرائيل في سواها من القرآن، وما ورد نداء لهم فهو من عيسى عليه السلام. ثم إن نداءهم جاء في مقام الامتنان عليهم. وإسرائيل - كما ذكر أهل العلم - لقب يعقوب عليه السلام، وهو "علم يشعر بمدح وإن كان باعتبار معناه الأصلي لأن معناه في الأصل: صفوة الله أي مختار الله أو عبد الله وهما باعتبار معنى الإضافة يدلان على شرف عظيم"^(١). وحين ينادي القرآن ذرية يعقوب بإضافتهم إلى صفة شرف بها أبوهم فإنه يومئ إلى فضيلة الاقتداء التي حث عليها القرآن، وإلى وجوب ذلك عليهم، فإن من كانوا أبناء

(١) حاشية القنوي ٢١٨/٣.

لمن اصطفاه الله وحب عليهم ألا يجيدوا عن ملة أبيهم. يضاف إلى ذلك ما في سياق الآية من ذكر إنجائهم من آل فرعون وتبويئهم خير مبعوثاً، وفي ذلك شروع في إبراز موارد المنة عليهم، والتنويه بها في معرض دعوتهم إلى الخضوع لما جاء به النبي محمد عليه السلام مما هو حق يعلمونه، ولا يخفى كذلك ما في النداء بطريقة البعد من تنزيلهم منزلة الساهي أو الغافل لعظم الأمر الذي دعوا له فإنهم مدعوون لاتباع الحق الذي جاء به النبي عليه السلام، وإلى الاقتداء بأبيهم في اتباع الهدى حيث كان، وإلى شكر نعمة الله عليهم بأن يطيعوا أمره الموجه لهم على لسان محمد عليه الصلاة والسلام.

القسم الثاني: النداء من الخلق

في كتاب الله الكريم آيات تحكي كلام الخلق، ومن ذلك ما يجري من ندائهم لخالقهم أو نداء بعضهم بعضاً. ونداء الخلق في القرآن ورد على وجهي الحقيقة والمجاز، ولكل أغراضه التي سيق من أجلها، وسوف يكون حديثنا عن هذا النوع من النداء وفقاً لأغراضه، وتحقيق أن نبدأ بالحديث عن الاستعمال الحقيقي في نداء الخلق، وذلك حين يكون النداء باستعمال أداة النداء (يا) على أصلها في نداء البعيد.

أولاً: النداء لتعظيم المنادى :

لعل أبرز نداء للإنسان في القرآن هو نداؤه لخالقه وبارئيه، وذلك ما يكثر في الدعاء إذ يُصدّر بالنداء غالباً، أو يرد في سياق الدعاء نداءً لله، ولقد كثر نداء الخلق لله بصفة الربوبية، وغلب غلبة واضحة في آي القرآن الكريم حتى يلاحظ التلازم بين الدعاء ونداء الرب، بل ربما كان النداء نفسه (يا رب) دعاء وتضرعاً وخضوعاً وتذللاً بين يدي الله. وهذا النوع من النداء حقه أن يستعمل فيه أداة النداء (يا) التي ينادى بها البعيد وذلك أن المنادى هنا عالٍ على خلقه بائن منهم. وإذا ما تتبعنا آي الكريم التي نادى فيها العبد ربه وجدنا النداء عارياً عن الحرف الذي لازم المنادى في كثير من وجوه النداء. غير أن الأداة لم يكن غيابها إلا لغرض مع أنها قائمة في التقدير ملاحظة في المعنى. فقد تكون العلة في حذفها هنا هو ما أشرنا إليه من قبل وهو أن المنادى حين يستشعر قرب المنادى فإنه يخاطبه بطريقة القرب، فإذا علمنا أن المولى عز وجل بائن من خلقه عالٍ فوق عرشه، فإن حق ندائه تعالى من خلقه

أن يكون بطريقة البعد، تعظيماً لمنزلته سبحانه، وإظهاراً لحقارة النفس أن تصل إلى منزلة القرب منه جل وعلا. غير أن المنادي بطمعه فيما عند ربه، وحسن ظنه به، وبتعاضم رغبته في الإجابة، يستشعر رحمة الله ووجهه لإلحاح العبد في الدعاء، وربما كان للمناجاة في الدعاء لذة واستعذاب لا يضاهاها سواها من التعبد والتذلل حتى وصف الدعاء بأنه مخ العبادة أو كما في الحديث الصحيح: «الدعاء هو العبادة»^(١). لأنه محل الإخلاص والصدق، وبه تأنس النفس وتسكن حين تختلج وتضطرب، ولذلك فإن أكثر ما يقع من الإنسان وقت الضر والكره الدعاء. ومن هنا كان الدعاء من العبد لربه مصدراً بنداء يستشعر فيه العبد القرب ثقة بربه. ثم إن القرآن الكريم قد بين أن الله قريب من الداعي قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وإذا علمنا أن دعاء العبد لربه في القرآن لم يرد إلا بحذف حرف النداء مع ثبوت حرف النداء في مثل ذلك في غير القرآن كما في الحديث الصحيح، وكما هو معلوم أن قول: (يا رب) ليس ممتنعاً؛ ظهر لنا بقوة احتمال أن يكون اقتصار القرآن على حكاية الدعاء عن العباد بما حذف فيه الحرف راجعاً إلى إرادة تعليم الله لخلقهم كيف يكون الدعاء، أو كيف هي الطريقة الأولى في دعاء العبد لربه. هذا كله وجه قوي وغرض لا شك في أهميته.

غير أن هناك غرضاً لطيفاً أشار إليه الكرمانبي نرى أنه أقرب وأعجب ألا وهو قوله: «كثرة حذف (يا) في القرآن من الرب تنزيهاً وتعظيماً، لأن

(١) أخرجه الترمذي في السنن ٤٢٦/٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ٦٤١/١، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

في النداء طرفاً من الأمر، إذا قلت: يا زيد افعل واصنع»^(١)، وهو وجه لطيف يُعدُّ من أغراض حذف حرف النداء عند دعاء العبد لربه، يؤكد ذلك لنا أن العبد مطالب بتعظيم الله عند سؤاله حاجته، فالنداء في ذاته ليس دعاءً، إنما الدعاء هو جملة الطلب التابعة للنداء، فمن تعظيم الله نداؤه بما يشعر أنه قريب مجيب. وبذا يمكن القول أن حذف حرف النداء هنا أريد به تعظيم المنادى لكيلا يواجه بكلام صورته صورة الأمر.

وقد يقال لِمَ لم يُستعمل حرف النداء المختص بالقرب الذي هو الهمزة؟ والجواب على ذلك أن المدعو هنا عظيم القدر عال المقام فنداؤه لا يكون إلا بالحرف المخصص للبعد، لكنه حذف من الكلام للغرض المذكور، أما النداء بالهمزة فلا يناسب مقام التفخيم والتعظيم الذي يليق بالله عند دعاء العبد له.

وبالنظر في آي القرآن الكريم المشتملة على دعاء العبد لربه، نجد لفظ (ربّ) ورد بصيغة الإضافة إلى (يا) المتكلم، وغلب عليه حذف الياء وبقاء الكسر تخفيفاً، وهو كثير شائع. وورد بصيغة الإضافة إلى ضمير (نا) المتكلمين. وهذا هو شأن الدعاء في القرآن الكريم مُصدراً بنداء الرب، عارياً من حرف النداء، ولم يخرج عن ذلك إلا آيتان هما قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزحرف: ٨٨] وقد وردتا في مقام التشكي والتبرؤ من سيء الأعمال. قال ابن عاشور عن الآيتين: « وهذا من استعمال الخبر في

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل لمحمود بن حمزة الكرمانى ٤٠٠/١، تحقيق شمران العجلي، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، دار القبلة، جدة.

التحسر والشكاية، وهو خبر بمعنى الإنشاء»^(١). وهذا لا يعني أن نداء الشكوى لا يرد إلا مع (يا) النداء ففي قوله تعالى: حكاية عن امرأة عمران: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] نوع من الشكوى وإظهار الحزن إذ هو في معنى: لِمَ جاء المولود أنثى؟ ولم يكن كما تمنته ذكرا.

كذلك فإن الدعاء بأسماء الله الحسنى بغير لفظ (رب)، جاء خاليا من حرف النداء في مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ الْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠١] فالتقدير: يا مالك الملك، ويا فاطر السموات " وانتصاب مالك الملك على أنه منادى ثانٍ أي (يا مالك الملك)، ولا يوصف (اللهم) عند سيبويه " (٢). وكله جارٍ على ما ذكرناه من تعظيم المنادى وتنزيهه، ومن استشعار القرب والطمع في الرحمة والإجابة. وهو مما يراعي فيه الداعي مناسبة الاسم المدعو به لحاجته هو، وهذه الآية فيها تعليم للعباد كيف يدعون ربهم فقد جيء باسم مالك الملك حينما كان الدعاء يتعلق بإيتاء الملك ونزعه من الناس، لأن العبد حينما يدعو لأمر فإنه يستحضر في نفسه صفة من صفات الله أو اسما من أسمائه تعالى تناسب حاجته التي دعا إليها، وكذا قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٢٧٢.

(٢) البحر المحيط ٣/٨٥.

فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿ [الزمر: ٤٦] فيه تعليم لطريقة الدعاء ومناسبة اسمه تعالى للأمر المدعو لأجله، ولذلك فإن هاتين الآيتين سبقهما أمر من الله تعالى وهو "قل"، أي ادع بهذا الدعاء، ولم يعقبه أمر مدعو له فعلم أنه تعليم لطريقة الدعاء وتخيير الأسماء الحسنی المناسبة للحاجة.

وفي اختيار الرب في الدعاء دون غيره نكتة هي الإقرار بالعبودية واستحضار استحقاق الله للألوهية، لأن من استحق صفة الربوبية استحق صفة الألوهية ومقتضياتها من التوحيد والإفراد بالعبادة ففي الدعاء بالرب استجماع لكل معاني العبودية، قال الرازي: « من أَرْضَى الدعاء أن ينادي العبد ربه بقوله: (يارب) »^(١). ولهذا المعنى فإنه لما كان المشركون مرتابين في أمر محمد عليه الصلاة والسلام، منكرين لحق الألوهية لم يرد في دعائهم (يارب) وإنما قالوا: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنِّ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [الأنفال: ٣٢] وليس في القرآن دعاء بقول: (اللهم) إلا وهو مقترن باسم آخر من أسماء الله عدا هذه الآية، ولعل السر في ذلك هو المعنى الذي ذكرناه وهو أن الدعاء كان من غير المؤمنين.

ومن تعظيم المنادى أن يخاطب الابن أباه بمنطق الطاعة والخضوع، كما في نداء إسماعيل لأبيه بطريقة التعظيم وذلك بتنزيله منزلة البعيد، في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ۗ قَالَ يَتَأَبَّأُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] فتعظيمه لأبيه بطريقة النداء

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي ٣١/٢٧ الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية. بيروت

إنما هو إبلاغ لأبيه بصدق طاعته وتمام انقياده لأمر أبيه، حتى يزيل ما في نفس أبيه مما يوهم رغبته عن المضي في تنفيذ أمر الله، والتعظيم هنا تبين بطريق الكناية إذ إن طاعة الابن واستجابته لازمان لتعظيم أبيه، وفي الآية إمعان في إظهار الطاعة حيث قال: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولم يقل: "افعل ما ترى"، وهو من كمال الطاعة وإخلاص الصدق في الاستجابة، إذ جعل مجرد رؤيا أبيه أمرا لا محيد عن فعله.

ثانيا: النداء لعظم الأمر المنادى له:

من أعظم ما خوطب به الإنسان في الكتاب الكريم عبادة الله وتوحيده، وهو أمر عظيم يظهر جلالة قدره في كثرة ورود النداء في سياقه، ويظهر ذلك جليا في نداء الأنبياء لأممهم، فقد نادى الرسل أقوامهم بطريقة البعد: "يا قوم" المفيدة لعظم الأمر الذي نودوا له، لأن أولئك المدعويين في حكم الساهي الغافل عما كلفوا به. ورد ذلك على لسان نوح وإبراهيم وصالح وشعيب وموسى عليهم السلام، إذ يدعون أقوامهم بهذه الطريقة تنزيلا لهم منزلة الغافلين لأن الأمر الذي نودوا له بلغ من علو الشأن إلى حيث إنهم لم يفوا بما هو حقه من السعي فيه، وهو عبادة الله.

وعلى السنة أولئك الأنبياء جميعهم جاء قوله تعالى: ﴿يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾^(١). ومن ذلك ما حكاه القرآن عن نوح عليه السلام في نداءه لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] ويتكرر هذا النداء من الأنبياء إذ يحكيه

(١) ورد هذا اللفظ في ستة عشر موضعا من القرآن الكريم.

عنهم القرآن في سورة الأنعام وسورة الأعراف وسورة هود، وتأمل هذا النداء يظهر أنه لم يُنادَ به قوم إلا عذبهم الله قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنْتَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠] ^(١)، فهو نداء بين يدي عذاب الله، مما يؤكد أن طريقة النداء هنا جاءت للتنبيه إلى عظم الأمر الذي دُعوا من أجله. وقد صدر هذا النداء من صالح آل فرعون وكان عاقبة قومه العذاب، ولا ريب أن موسى أنذرهم إلا أنه لم ينادهم بطريقة (يا قوم) لأن فرعون وقومه لم يكونوا قوم موسى عليه السلام نسبا. بيد أن هارون عليه السلام نادى بني إسرائيل بهذه الصفة عند اتخاذهم العجل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَنْقُورِ إِنَّمَا قَتَلْتُمْ بِهِ ٥ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] وهو من الرفق بهم لغرض استمالة قلوبهم للاستجابة إلى الأمر العظيم وهو عبادة الله وترك عبادة العجل، حيث كان النداء منزلا لهم منزلة الغافل أو الساهي عن عظيم الأمر الذي تركوه إلى غيره.

ومن الملاحظ أن النداء المراد به التنبيه إلى عظم الأمر كثيرا ما يتضمن تلطفا ورفقا بالمنادى، ولذا نرى الأنبياء يدعون أقوامهم بما يشعر بالقرابة التي

(١) قال الرازي: « أولهم قوم نوح والله أهلكتهم بالإغراق، وثانيهم عاد الله تعالى أهلكتهم بإرسال الريح العقيم عليهم، وثالثهم: ثمود والله أهلكتهم بإرسال الصيحة والصاعقة عليهم، ورابعهم: قوم إبراهيم أهلكتهم الله بسبب سل بالنعمة عنهم... وخامسهم قوم شعيب وهم أصحاب مدين أهلكتهم الله بعذاب يوم الظلة، والمؤتفكات قوم لوط أهلكتهم الله بأن جعل عالي أرضهم سافلها»، ينظر لذلك التفسير الكبير ١٦/١٠٣.

تربطهم بهم، وذلك بإضافة لفظ قوم إلى ضمير النبي لتقريب نفوسهم و"التذكيرهم بأصرة القرابة، ليتحققوا أنه ناصح ومريد خيرهم ومشفق عليهم، وأضاف (القوم) إلى ضميره للتحبيب والترقيق لاستجلاب اهتدائهم".^(١)

ونظير ذلك ما ورد في دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] فإنه نادى أباه بقوله: (يا أبت) لما في ذلك من التلطف واستمالة النفس كما بين ذلك فريق من المفسرين^(٢) قال البيضاوي: « وإنما تذكر [يا أبت] للاستعطاف ولذلك كررها »^(٣). وهو من الإطناب الذي يقتضيه مقام الدعوة واستمالة النفس الجانحة عن الحق. وينقل ابن عاشور عن جده قوله: « في النداء بقوله: (يا أبت) أربع مرات تكرير اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعدة لأنها مقام إطناب. ونظر ذلك بتكرير لقمان قوله: (يا بني) ثلاث مرات، قال: بخلاف قول نوح لابنه: (يا بني اركب معنا) مرة واحدة دون تكرير لأن ضيق المقام يقتضي الإيجاز وهذا من طريق الإعجاز »^(٤). وفيما ذكره أيضا إشارة إلى نداء لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِأَبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وذكر عند هذه الآية أن "افتتاح الموعدة بنداء المخاطب الموعوظ مع أن توجيه الخطاب مغن عن ندائه لحضوره بالخطاب، فالنداء مستعمل مجازا في طلب حضور الذهن لوعي الكلام وذلك

(١) التحرير والتنوير ١٨٨/٨.

(٢) ينظر لذلك أنوار التنزيل ٣٢/١٢. وحاشية الشهاب ١٦٠/٦، وحاشية القونوي ٢٣٧/١٢.

(٣) أنوار التنزيل ٣٢/٢، وقد تكرر ذكر (يا أبت) في الآيات ٤٣ و٤٤ و٤٥ من سورة مريم.

(٤) التحرير والتنوير ١١٤/١٦.

من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام" ^(١). فالنداء هنا استعمل مجازاً لأن المخاطب قريب إلا أن أهمية الأمر وعظمه تدعو إلى إحضار الذهن وتمام الوعي. فالجملة الندائية في هذا النوع من النداء تحمل غرضين، أحدهما: مبناه على الاستعمال المجازي حيث حوَّطب القريب بندائه مع أنه يكفي في إبلاغه خطاب حال من النداء، وذلك للتنبيه على عظم الأمر وأهميته وأنه بحيث يتوجب على المنادى أن يريعه سمعه وأن يُحضر له وعيه. والغرض الثاني: هو التلطف والشفقة بأن يُنادى المنادى بصفة تستميل نفسه. وفي نداء لقمان لابنه بطريقة التصغير: (يا بُني) مراعاة لمسألة التلطف "وهو تصغير إشفاق" ^(٢). والذي يظهر أن ابن لقمان كان يافعاً لأن خطابه بالتكاليف لا يناسبه صغر سنه، فعلم أن تصغيره للتلطف ولذا قال ابن عاشور: «التصغير فيه لتنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتعجب له، وهو في مقام الموعظة والنصيحة إيماء وكناية عن إحاض النصح وحب الخير، ففيه حث على الامتثال والطاعة» ^(٣). وفي هذا النداء يبرز غرض التنبيه على صفة المنادى ضمن الغرض الأكبر وهو التنبيه على عظم الأمر المنادى له، لأن الخطاب بالنداء غرضه تنزيل المنادى منزلة البعيد ليوحي ذلك بأهمية وعظم الأمر المنادى له، لأنه كالغافل الساهي عنه، ثم اختيار صفة من صفات المنادى دون غيرها.

وبهذا الخطاب الذي يشعر بعظمة الأمر يخاطب سليمان عليه السلام الناس

إذ يحكي عنه القرآن قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٥٤.

(٢) أنوار التنزيل ٢/٢٢٨.

(٣) التحرير والتنوير ٢١/١٥٥.

وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَثْرًا ۚ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿النمل: ١٦﴾ [فإن تعليم الله لهم منطق الطير وانفرادهم بهذه الصفة دون غيرهم من الناس يعد أمراً عظيماً، فقد نزلهم منزلة البعيد في خطابهم "تشهيراً لنعمة الله تعالى وتنويهاً بها ودعاءً للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير وغير ذلك من عظام ما أوتيته" (١).

ومما يُكرّم به المنادى أن يكون النداء بغير الأداة، وذلك لبيان قربه، وللتلطف له وإشعاره بخصوص مكانه لدى المنادي، وقد بين الزمخشري فائدة ذلك في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩] حيث يقول: «حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مُفَاطِنٌ للحديث، وفيه تقريب له وتلطيف لمخلة» (٢). فحذف الأداة يشعر باقتراب المنادى من المنادي مكاناً أو مكانة، وفي الآيتين يتبين تكريم المنادى والتلطف لمخلة. ويتضح في هذا النداء أنه لما تبين للعزیز صدق يوسف تبدلت منزلته عنده، فترك النداء بالأداة الدالة على البعد ليبين قرب منزلته، ويشعره بإنزاله منزلة لم تكن له من قبل، ولا يكون ذلك حتى يظهر في النداء أن أصله كان نداءً للبعيد الأقل منزلة بطريقة الاستعلاء، ثم عدل عنه إلى خطاب مشعر بقرب المنزلة، وأن نظرة المنادي للمنادى اختلفت فاختلف النداء، وهذه الصورة لا يوضحها إلا نداء بغير أداة ليتبين أن حذف الأداة أريد منه بيان منزلتي المخاطب وأنه أدني من المتكلم بعد أن لم يكن كذلك. أي أنه كان حقه أن يُنادى بما يدل

(١) أنوار التنزيل ١٧٢/٢.

(٢) الكشف ٣١٥/٢.

على البعد ثم عدل عنه إلى ما يدل على القرب. بأن حذفت الأداة الدالة على البعد. وقد تكررت صورة هذا النداء في نفس السورة: ﴿يُؤَسِّفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦] ويذكر البيضاوي ومحشّو تفسيره أن هذا النداء كان لقربه، والذي يفهم منه أن المراد قرب منزلته من المنادي، لأن المتكلم (المنادي) في هذه الآية هو الذي نجا من صاحبيه في السجن، وقد "جرب من أحواله لجواره في دار حبسه من الأمانة والصدق وكمال الورع والعفة"^(١). ما يجعل رسول الملك يخاطبه بنداء التقريب وإعلاء المنزلة.

ثالثاً: الحرص على إقبال المنادى:

ذكر البيانين أن المنادي لحرصه على إقبال المنادى فإنه يصير المنادى عنده كالبعيد لأن النفس إذا اشتد حرصها على الشيء صارت كل ساعة تراه قبل وقوعه في غاية البعد^(٢). ومن أكثر الأمور التي ترغبها النفس وتميل إليها؛ الشفقة والرحمة والعطف. وذلك في بعض ما يعرض إليها من أحوال تستدعيها، وإذا كانت النفس حريصة على الرحمة والشفقة وراغبة في استيجابها من المخاطب فإن نداء المخاطب بطريقة البعد في المواقف التي تفيد الاسترحام والاستعطاف إنما هو لشدة حرص النفس على حصول الرحمة والشفقة، فينزل المخاطب منزلة البعيد لأن المنادي يرى المنادى بعيداً لاستلزام بعده لبعده الرحمة معه، فيخاطبه بنداء البعيد. والعجيب في كلام أهل العلم عن هذا الغرض أن الشيء إذا بعد واشتد حرص النفس عليه وشوقها

(١) حاشية القونوي ١٠/٣٤٢.

(٢) ينظر مواهب الفتاح (شروح التلخيص ٣/٣٣٤).

إليه، فإنه يصير في كل ساعة قبل وقوعه في غاية البعد، غير أن النداء لا يقع على هذا الشيء المطلوب وإنما يقع على من هو بسبب منه، كما مثلوا بقولهم: (يا غلام أين الماء؟) فحاجة النفس وطلبها للماء لأنه هو الذي تراه بعيدا لشدة حرصها عليه وعظم شوقها إليه، إلا أن المنادى حينئذ الغلام وليس الماء وهي لمحة لطيفة، وملاحظة مشرقة، إذا أصبح المنادى نفسه بعيدا كبعد الشيء الذي طُلب منه، لأنه لما صار المطلوب بعيدا فيما يتصوره طالبه صار كل ما هو منه بسبب في غاية البعد مثله.

وقد يكون من ذلك ما ورد على لسان هارون عليه السلام في استرحام أخيه موسى بندائه بطريقة البعد ولم يكن موسى بالبعيد إنما كان آخذا بلحية أخيه بيدٍ ورأسه بيدٍ أخرى ولا سامع أقرب لمحدث منه لموسى حينئذ، قال تعالى حكاية عن هارون: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه: ٩٤] فقد نادى أخاه بصفته ابن أمه استرحاما له واستعطافا لقلب أخيه "وهي عادة العرب تتلطف وتتحنن بذكر الأم"^(١). لأنه رأى من موسى غضبا وهو غضب أولياء الله لله، فخشى هارون من غضب أخيه واشتد حرصه على الرحمة والشفقة فناده بطريقة البعد، وكان أخاه "لأبيه وأمه عند الجمهور"^(٢) وإنما ناداه بصفة اجتلب فيها ذكر الأم دون غيرها إيقاظا لتلك الرحمة التي تنبعث عند ذكر الأم، لما للأم من حق في برها برحمة ابنها، ولعل في ذلك أيضا توسلا بالأم واستشفاعا بها، فتكف نفس

(١) البحر المحیط ١٨٢/٥، وهذا التفسير ذكره أبو حيان عند آية الأعراف التي ستأتي قريبا، وذكرناه

هنا لتشابه مدلول تخصيص الأم بالنداء في الآيتين وهو الاستعطاف والتلطف والتحنن.

(٢) تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ٧١/٢

موسى عن الغضب والبطش. قال القونوي: « الأم أشفق وأرفق قلبا وأيضا أن مراعاة حقها أهم وأضاف إليها تذكيرا بركة البشرية، وتحريضا على مخافة حقها، ومن جملتها اللطف بي والتفحص في حالي»^(١). وقد نرى في حديث أهل العلم إجمالا في مصدر دلالة النداء على الاسترحام، إذ جعل مصدر الاسترحام والاستعطاف والتلطف هو إضافة المنادى إلى الأم، مع أن للنداء نفسه بصيغة البعد مدخلا أوليا في إبراز الرغبة في العطف واللطف. فيظهر أن النداء هنا بيان لما في النفس من رغبة في الرحمة، وأما المنادى (ابن أم) فهو رافد لمعنى الاسترحام الذي بعثه النداء. وقد حكى القرآن نداءه لأخيه موسى في آية أخرى بغير أداة النداء، فالظاهر أنهما نداءان في خطاب واحد، والنداء في الآية السابقة هو نداء استرحام كما بينا إذ أخذ موسى بلحيته وبرأسه فخشي على نفسه الهلكة من بطش موسى، ثم ناداه هارون ثانية في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأُلُوحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]

وليس النداء في الآيتين حكاية لنداء واحد بصورتين، لأن في الثانية مما يتبع النداء ما يختلف عن الأولى، وفي الثانية لطف ليس في الأولى، إذ شعر هارون برحمة موسى له لأن الآية الأولى أخبرت أنه أخذ بلحيته وبرأسه والثانية أخبرت أنه أخذ برأسه فقط، وفي الأولى توصل من هارون ألا يأخذ موسى بلحيته ولا برأسه، أما في الثانية فالنداء خلا من توصل هارون، وإنما بين فيه عذره لموسى بقوله: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي﴾ مما يدل على أن النداء الأول كان

(١) حاشية القونوي ٤١٥/١٢.

استعطافا واسترقاقا لقلب أخيه، وأن النداء الثاني حمل تعبيراً عما في نفس هارون من زوال الخوف من بطش موسى، فشعر برحمة موسى له، فنداؤه بغير أداة بقوله: ﴿أَبْنَ أُمَّ﴾، يوحي بأنس هارون وزوال وحشة اللحظة الأولى ورهبتها واقتراب موسى إلى نفس هارون فكان مناسباً أن يناديه بغير أداة كما رأينا نداء العزيز ليوسف عليه السلام بغير أداة بعد أن أنست نفسه إلى براءة يوسف، ومما يؤكد أن النداء الأول غير الثاني قول الطاهر عند الآية المحذوف فيها الحرف: «لأن كلامه هذا وقع بعد كلام سبقه فيه حرف النداء وهو المحكي في سورة طه: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿أَبْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي﴾ فهما كلامان متعاقبان، ويظهر أن المحكي هنا هو القول الثاني، وأن ما في سورة طه هو الذي ابتداءً به هارون، لأنه كان جواباً عن قول موسى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (١٢) ﴿أَلَا تَتَّبِعَنِ﴾ (١).

ونعود لنداء الاسترحام والاستعطاف حيث نجد في قصة بني يعقوب مع أبيهم إذ يخاطبونه بنداؤه بتنزيله منزلة البعيد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١] وذلك لحرصهم على أن يروا الرحمة من أبيهم فقد تبالغ ذلك الحرص حين علموا أن أباهم إنما يمنع أحاهم منهم وحفظه عن صحبتهم، فصار ائتمان أبيهم لهم على يوسف في نفوسهم أمراً بالغ البعد، إذ يشعرون أنه لن يكون ذلك إلا باستئصال أبيهم بطريق الاسترحام والاستعطاف، ولولا ذلك المعنى لما صح النداء لأن أباهم ليس

(١) التحرير والتنوير ٩/١١٧-١١٨.

غافلا أو ساهيا أو نائما كما أن النداء لا يوحى بتعظيمهم له إذ إن الجملة الطلبية بعد النداء استفهامية فيها معنى العتاب .

وقال بعض أهل العلم إنه استفهام إنكاري وتعجبي^(١)، ولا ريب أن كلاً من العتاب أو الإنكار لا يستلزم تعظيم المنادى، بل هو أقرب إلى الإخلال بمعنى التعظيم في الخطاب، فحمل النداء هنا على معنى شدة رغبتهم في الحصول على رحمة أبيهم، ويؤيده ما ذكره بعض أهل العلم من أنهم "خاطبوه بلفظ الأبوة استعطافاً له، وتحريكا للحنوّ الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء وتوسلاً بذلك إلى تمام ما يريدون من الكيد الذي دبروه"^(٢). وإذا كان نداء إسماعيل لأبيه عليهما السلام تعظيماً للأب، فإن التعظيم لا يتحقق هنا - في نداء بني يعقوب - لما ذكرناه، وشتان بين نداء إسماعيل لأبيه وندائهم لأبيهم. ومما هو بسبب من هذا الموضوع - أعني النداء للحرص على إقبال المنادى - نداء ما لا يعقل وذلك لشدة حرص المنادي وتلهفه، وهذا النداء ورد بكثرة في الكتاب الكريم إذ نوديت الحسرة ونودي الويل، ونودي الأسف، ونوديت صيغة التمني (ليت) مضافة إلى ضمير المتكلم، ونوديت عارية عن الإضافة. ولا ريب أن هذا النداء وراءه غرض أساس ينبعث من تنزيل المنادى منزلة العاقل البعيد، وذلك بأن خوطب خطاب العاقل بالنداء، واستعمل معه طريقة البعد. ولم يتجاوز النداء هنا نداء المعاني، إذ لم يناد الأعيان والأشخاص، مما يحيط بالإنسان من مخلوقات، وغلب على هذا النداء

(١) ينظر لذلك - مثلاً - البحر المحيط ٦/٢٤٥. وفتح القدير ٣/١٢. والتحرير والتنوير ١٢/٢٢٧.

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٣/١٢، للإمام محمد بن علي الشوكاني، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ دار ابن كثير، دمشق.

أن يكون في مقام التحسر، وقلّ أن يقع في مقام التمني، وندر في مقام الاستبشار، إذ لم يرد إلا مرة واحدة، وهو نداء للهلاك. قال القونوي عن هذا الأسلوب: « فيه استعارة مكنية وتخيلية، شبه الهلاك في النفس بالشخص المطلوب إقباله في كونه مطلوب الإقبال بعد تنزيله منزلة العقلاء ادعاء»^(١). وقوله: « مطلوب الإقبال » يشير إلى ما ذكره البيانون عن هذا الغرض وهو حرص المنادي على المنادى وشدة تعلقه به، لأنه يتباعد عنه الخلاص ساعة بعد ساعة فنداء الهلاك يوحي برغبته الشديدة في الخلاص مما هو فيه، فإن الموت حينئذ أحب إليه.

ويفهم من كلام أهل العلم أن المنادى في هذا الأسلوب على وجهين أولهما: أن يكون محذوفاً مقدراً، والثاني ألا يكون في النداء حذف ولا تقدير وذلك يعني أن المنادى هو ما دخل عليه حرف النداء، ولعل الأولى إن لم يكن المنادى مقدراً أن يكون المنادى هو المعنى المدلول عليه باللفظ الداخل عليه حرف النداء لا ما دخل عليه الحرف، بتنزيل ذلك المعنى منزلة من يعقل، في مثل قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْضَرُنَا عَلَيَّ مَا فَرَطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام: ٣١] وفي حاشية الشهاب: « قال سيبيويه: كأنه يقول أيتها الحسرة هذا أوانك، وقال أبو البقاء^(٢): معناه يا حسرة احضري هذا أوانك، وهو مجاز معناه تنبيه أنفسهم لتذكر أسباب الحسرة لأن الحسرة لا تطلب ولا يتأتى إقبالها، وإنما المعنى على المبالغة في ذلك حتى كأنهم

(١) حاشية الشهاب ٩٩/١٢.

(٢) التبيان في إعراب القرآن ١/٤٩٠ لأبي البقاء العكبري، تحقيق على محمد الجاوي، لم تحدد طبعته أو تاريخها، مطبعة الباي الحلبي وشركاه، مصر.

ذهلوا فنادوها كقولهم: (يا وليلتنا) ، قيل والمقصود التنبيه على خطأ المنادي حيث ترك ما أحوجهم تركه إلى نداء هذه الأشياء»^(١).

والجواز الذي ذكره هو تنزيل ما لا يعقل منزلة العاقل المخاطب حقيقة، فينادى كما ينادى العاقل إظهاراً للندم والأسف على ما كان منهم من تقصير في دنياهم، وهو نداء يبين ذهولهم عن واقع الأمر ونطقهم بما يخالف المعتاد وهو مخاطبة ما لا يستجيب، وفي اختيارهم الحسرة -وهي حينئذ كناية عن رغبتهم في الهلاك- بيان لشدة ندمهم وخسرتهم، إذ لو كان نداؤهم لمن استجابته لهم ممكنة لكان في غير محله لأنه لا يجيب لهم فيما سألوه، فكيف وهم ينادون من يستحيل منه السمع أو الاستجابة، ولعل هذا هو مراد الشهاب بالمبالغة، وفيه بيان لمقدار خيبتهم وخسرتهم.

وأما قوله: «المقصود التنبيه على خطأ المنادي» فإن هذا التنبيه صادر عن المخبر عنهم وهو القرآن الكريم فغرض الآية التنبيه على أن المنادين بخيبتهم وخسرتهم إنما هم يُعلمون السامع بأن تركهم لما أمروا به أحوجهم إلى هذا النداء المنبئ عن خسرتهم، والتنبيه لكي يتجنب المخاطب بالقرآن سلوك سبيلهم، وذهولهم إشارة إلى هول ما وقعوا فيه من المفاجأة حتى فقدوا رشدهم، فنطقوا بما هو من المحال. وقريب من هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦] قال القونوي -مشيراً إلى فائدة في النداء بطريقة البعد-: «أي يا حسرتنا احضري

(١) حاشية الشهاب ٤/٤٨. وهذا المنقول عن سيبويه لم أجد في النداء إلا في باب الندبة عند قولهم: (يا للعجب) ونحوها، وهو هنا بمعناه لا بلفظه.

فهذا أو أنك، ولكمال تأسفه نادى الحسرة والندامة تنزيلا لها منزلة العقلاء، وطريقة البعد لكمال دهشه، أو لأن الحسرة لكونها غير محسوسة كانت بعيدة»^(١).

ومما يحتمل أن يكون من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠] لأن ظاهر اللفظ يُفهم أن نداء الحسرة صدر من المولى عز وجل فوق لأهل العلم توجيهات في ذلك، إذ حُمل المعنى على أن النداء كان من الملائكة أو من الرسل أو من العباد عموما، لكيلا يكون صدور التحسر من الله، وقد أجاز النداء من الله فريق من أهل العلم على طريق الاستعارة "بأن شبه حال العباد بحال من يتحسر عليه الله تعالى فرضا ولا يلزم أن يكون المشبه به محققا بل يجوز أن يكون مفروضا... إذ الحسرة لا يصح ثبوتها له تعالى على الحقيقة"^(٢).

وقد تحاشينا إيراد هذه الآية في نداء الله لخلقه، إذ الأولى - في نظرنا - ألا يُنسب التحسر إلى الله تعالى، تنزيها له، وإن حمل المعنى على الاستعارة والتشبيه المفروض غير المحقق. وذلك لأن التحسر هو "حالة تعتري الإنسان من غاية الندامة على شيء"^(٣). وهو ما لا يناسب مقام المولى عز وجل، على أن فريقا من المفسرين لم يذكروا أن التحسر كان من الله لا حقيقة ولا

(١) حاشية القونوي ٥٥٨/١٦.

(٢) المصدر السابق ١٢٢/١٦.

(٣) حاشية ابن التمجيد ١٢٢/١٦.

مجازاً^(١). ويؤيد ذلك أن لفظ "حسرة" لم ينادَ في القرآن إلا مضافاً إلى ضمير المتكلم كما في آية الأنعام السابقة ، ومثلما في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّقْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦] وكذلك الألفاظ الأخرى (ويلتنا، ويلتنا، وويلنا)، الدالة على الندم والتأسف لم ترد في النداء إلا مضافة إلى ضمير المتكلم أو ما يجزئ عنه كالألف في (يا ويلتنا) . وهذه الإضافة تنبئ عن صدور نسبة الحسرة للمنادي وكأنه ينادي حسرته هو لا غيره، مما يؤكد لنا أن الأولى والأرجح أن النداء في هذا الآية لم يصدر عن الله سبحانه، إنما هو حكاية لنداء مخلوق كالملائكة أو الرسل أو الرجل المؤمن.

وفي نداء الويل والثبور ما يفيد أن المنادي بلغ من التشوق للخلاص مما هو فيه إلى أن يفضّل الموت والهلاك على حاله التي هو فيها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتُولِيَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوَاءَ أَخِي ۗ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] فقد ذكر الشهاب الخفاجي أن هذا النداء "مجاز عن التحسر كأنه ينادي موته ويطلب حضوره بعد تنزيله منزلة من يُنادَى، ولا يطلب الموت إلا من كان في حال أشد من الموت، فكفى به عن ذلك"^(٢).

والكناية في أن المطلوب يلزم أن يكون أفضل من الموجود فدل بطريق اللزوم على أن الموت أفضل عنده من الحياة التي هو عليها. وخلاصة الأمر أن تشوّقه وهفته إلى ما هو مستحيل الإجابة جعله يخاطبه بما يخاطب به العقلاء

(١) ومنهم أبو الفرج بن الجوزي، في زاد المسير في علم التفسير ٢٧٨/٦، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت. وأبو عبد الله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٧/٨، لم تحدد طبعته،

١٤١٣ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت

(٢) حاشية الشهاب ٢٣٦/٣

ويناديه نداء البعيد. وفي قول الكافرين عند الحشر: ﴿وَيَقُولُونَ يَتُولِنَا مَا لِهَذَا الْأَكْتَبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩] نداء لهلكتهم وفي إضافة المنادى إلى ضمير المتكلمين إشارة إلى شعورهم بأنه "لا ندعم لهم ولا صاحب إلا الهلاك"^(١).

وقد جعل البيضاوي بعض هذه النداءات دعاءً على النفس كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَتُولِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦] فيكون التركيب الدال على النداء مستعملاً في الدعاء على سبيل المجاز إما مرسلًا بعلاقة المجاورة لأن النداء والدعاء يتجاوران في الذهن، وإما مكنية تخيلية بتشبيهه مطلق الطلب بخصوص المترجى بجماع حرص النفس ورغبتها في كلِّ. وهو أيضا مما يفيد غاية الندامة والتحسر. لأنه لا يدعو على نفسه بالهلاك إلا من ضاق به حاله ورأى الهلاك أيسر منه.

وهذا النوع من النداء لكونه لا يستعمل إلا في مواطن التحسر المنبعثة من الثبور فإن وروده في كلام امرأة إبراهيم عليه السلام حينما بشرتها الملائكة بالولد، في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَتُولَتِي أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢] لا يفيد معنى الخسران والثبور وطلب الهلاك، ولكن يحمل على المجاز ليفيد التعجب، قال البيضاوي: «يا عجباً، وأصله في الشر^(٢) فأطلق على كل أمر فظيع»^(٣). لأن الأمر الذي دعاها للنداء لم يكن

(١) حاشية القونوي ٩٩/١٢.

(٢) أي أصل استعمال تركيب (يا ويلتا) لا يكون إلا في الشر.

(٣) أنوار التنزيل ٤٦٣/١.

في الشر، وإنما هو في الخير وهو إنجاب الولد، ولم يُبين المفسرون وجه المجاز، وهو استعارة تمثيلية، حيث استعير التركيب الدال على الخسران والثبور لمعنى التعجب، بجامع هول الموقف وفضاعته، فالتعبير بما هو أدل على هول الموقف لبيان شدة تعجبها من ولادتها على كبر. ويؤيد معنى التعجب في نداءها قول الآية بعدها: ﴿قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

أما الوجه الثاني الذي ذكره أهل العلم فهو أن يكون المنادى هو اللفظ الداخِل عليه حرف النداء، وقد أشرنا إلى أن معنى هذا أنه نودي المعنى المدلول عليه باللفظ المولى حرف النداء، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَلْنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩] ولكن هذا الوجه لا يفي بالمعنى المطلوب من إظهار التحسر والثبور، قال الشهاب: «أما تقدير المنادى أي: "يا من بحضرتنا وملتنا" ففيه حذف وتقدير لما تفوت به تلك النكته»^(١) يريد تفويت ما ذكرناه من معان لطيفة عند نداء الهلكة والثبور والتحسر.

رابعاً: النداء للتقليل من شأن المنادى :

ينزل المخاطب منزلة البعيد توبيخاً أو تهكماً أو سخرية به، وذلك بألا يخاطب بالخطاب المباشر وإنما ينادى إشعاراً له ببعد منزلته عن منزلة الحضور، ومن ذلك ما حكاه القرآن في نداء المشركين للنبي عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾

(١) حاشية الشهاب ٦/١٠٨.

[الحجر: ٦] حيث خاطبوه بنداء يشعر باستبعادهم صحة نبوته فلم يخاطبوه بصفته نبيا، وإنما خوطب بطريقة النداء تمكنا منهم بقضية تلقي الوحي ولذلك فقد أدخلوا بين النداء والطلب جملة خبرية تؤكد سخريتهم وهي قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وهي تخلص منهم من تبعة الإقرار بنبوته ودلالة على معنى الاستهزاء الذي سيق النداء من أجله. واستبعاد للمخاطب من مقام الخطاب بأن ينادى بطريقة البعد لإقصائه عن المنزلة التي تجمعها بالمتكلم، وذلك للتهكم والسخرية وهو بعد يستلزم تعالي المتكلم على المخاطب كما جاء في خطاب فرعون لموسى عليه السلام فيما حكاه تعالى عنه في قوله: ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] قال الطاهر: «إنما قال "إني لأظنك يا موسى مسحورا" عنادا ومكابرة وكبرياء»^(١) وهو كذلك يستلزم معنى التقليل من شأن المخاطب والسخرية منه، ولهذا المعنى من الكبرياء والغطرسة والشدة التي زرعتها فرعون في نفوس قومه تجاه موسى عليه السلام فإنهم لا يكفون عن هذه الطريقة في الخطاب من التهكم والسخرية إذ نجدهم ينادون موسى بهذه الصفة الباطلة وهم يسألونه أن يدعو لهم ليكشف عنهم البلاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا تَأْيِهَ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزحرف: ٤٩] فهم يرجون منه أن يدعو لهم ولم تفتد ألسنتهم إلى نداءه باسمه كما في قوله تعالى في آية أخرى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] بل أصروا على التهكم والسخرية. قال الشهاب: «النداء بالساحر جار على ما جُبلوا عليه من الشدة والحدة

(١) التحرير والتنوير ١٤/٢٢٦.

وعلى نهج ما ألفوه من تحقيره ولذا سبق لسانهم له «^(١). وهذا النداء قرينة كذبهم في قولهم: ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ إذ لو اهتمدوا لما دعوه بنداء السخرية والاستهزاء. فقد شهدوا على أنفسهم من أول الأمر أنهم ليسوا مهتدين. ومن تنزيل المخاطب القريب منزل البعيد بأن ينادى بطريقة البعد للتقليل من شأنه وإسقاط منزلته، ما جاء في قصة مريم حين جاءت تحمل ابنها إلى قومها فقالوا: ﴿يَتَأَخَتْ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] فنداؤهم لها يشير إلى ما في نفوسهم من سوء ظن بها وقولهم: (أخت هارون) - وهو إما أخوها ، وإما رجل اسمه هارون من قومها كان صالحا، أو أنهم أرادوا هارون النبي عليه السلام لأنها كانت من بنيه^(٢) - يريدون نسبتها إليه مبالغة في معنى التهكم لأن قرن اسمها باسمه إشارة إلى ما بينها وبينه من بون في نظرهم فهم يلمزونها في عفتها، والبيّن هنا أنه لا جملة طلبية بعد هذا النداء كما هو المعهود في مثله، لأن غرضهم من النداء ليس إلا السخرية واللمز، لأنه لا دليل عندهم على براءتها لولا ما أجراه الله بإنطاق رضيعها في المهدي، ومع ذلك فإن طائفة منهم لم تؤمن بل أصرت على كفرها. ولعل من هذا القبيل - أعني السخرية - ما ورد حكاية عن موسى عليه السلام في مجادلة فرعون في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرَعَوْتُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] ففي نداء موسى له رد على تهكمه وسخريته التي أشرنا إليها قريبا ، وفي ندائه كما في

(١) حاشية الشهاب ٤٤٥/٧.

(٢) زاد المسير ١٦٨/٥ بتصرف في العبارة.

نداء فرعون إبعاد للمخاطب عن مقام الحضور إلا أنه في كلام فرعون من منطق الكبرياء والعناد، وفي كلام موسى عليه السلام من باب توقع الخسران لمن هذه حاله، فلما كان خطاب فرعون مبنياً على نداء الاستبعاد والتقليل من المنزلة، كان رد موسى من جنس ما خاطبه به فرعون على حد ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ تَسْحَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْحَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْحَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] إذ إن السخرية ابتداء ليست من فعل أولياء الله، بل هي من باب المعاقبة بمثل الذنب، ولا يشكل على هذا ما أوردنا في النداء للتعظيم، وهو قول الله تعالى حكاية عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرِّعُونَ إِلَيَّ رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤] لأن هذه الآية كانت في مستهل دعوته، وأما آية السخرية فكانت بعد أن تبين لموسى عصيان فرعون وهلاكه، ولذلك حكم عليه بأنه مشبور أي هالك.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وقد أتممنا الحديث عن مجازات النداء وحقيقته في الخطاب القرآني الكريم، وبيننا وجه الاستعمال ووجه الدلالة في تنزيل المنادى منزلة غيره، واستعمال حرف النداء (يا) مجازا في القرآن الكريم، إذ لم يرد نداء بغيره إلا آية واحدة ورد فيها النداء بالهمزة على احتمال أن يكون لا نداء في الآية، وقد تتبعنا كلام أهل العلم في وجوه النداء وتنزيل المنادى منزلة غيره إذ هو مناط الحكم باستعمال حرف النداء في غير ما وضع له، ثم إن هذا الاستعمال ظهر معه أغراض بلاغية أبرزت ميزة النداء في الخطاب القرآني. وكان لهذه الدراسة نتائج نجملها فيما يلي:

أولاً: أن استعمال حرف النداء (يا) في القرآن غلب عليه الاستعمال المجازي، بل لعلنا لا نعدم الصواب إن قلنا إن كل ما في القرآن من هذا إنما هو من المجاز على وجوه محتملة من المرسل والاستعارة التبعية والأصلية.

ثانياً: أن الخطاب القرآني المشتمل على النداء يتميز بالجمع بين الحقيقة والمجاز، والتركيب المشتمل على النداء تكتسي فيه الألفاظ الحقيقية معاني يدعمها الاستعمال المجازي لحرف النداء، وتنزيل المنادى منزلة غيره.

ثالثاً: نداء الله لغير العاقل من مخلوقاته نداء حقيقي إذ تبين من استقراء الآيات أنه خطاب حقيقي وأن حرف النداء وإن استعمل مجازا في نداء هذه المخلوقات إلا أن ذات الخطاب حقيقي وليس تنزيلا لها منزلة العقلاء، كما ورد في كلام بعض المفسرين. بل هو خطاب أُلقي إلى سامع مجيب.

رابعاً: نداء الله لنبيه محمد عليه السلام في معرض التكليف ليس كنداء غيره من خلقه لأن نداء سائر الناس بصيغة (يا أيها) لتنزيل المنادى منزلة البعيد تنبيها له على عظم الأمر وأن المنادى كالساهي الغافل ، أما النبي فإن نداءه لبيان عظمة منزلته وأهليته للتكليف بالرسالة وأداء الأمانة.

خامساً: أظهر النداء عظمة أسلوب الخطاب القرآني في الدعوة إلى الله والرفق بالمخاطب وتجنب تعنيفه ونبره بما يكره من الأسماء والألقاب، حتى يستميل قلبه بلطف وملاينة فيقبل ويُقبل.

سادساً: أن القصة القرآنية إذا رويت بصورتين مختلفتين فإن كلا منهما لها مقام وجانب من القصة، وقد تكون إحداها مكملة للأخرى أو مبينة لها، ولا يلزم أن تكون الصورتان تحملان تكرارا بوجهين من الحكاية. ومثال ذلك ما رأيناه في ندائي هارون لموسى في موضعين من القرآن واتضح أن كلا من النداءين وقع في حال مغايرة لحال الآخر.

سابعاً: تعظيم العبد لخالقه وتكريم البشر لبشر مثله يظهر جليا في النداء بغير أداة.

ثامناً: لم يرد في القرآن نداء من الإنس لغير العاقل، مثلما نادى الله مخلوقاته التي لا تعلم لها عقلا، ومثلما رأينا في الشعر العربي من نداء الإنسان لما لا يعقل كنداء الديار، والطير، والراحلة ونحوها. وإنما ورد في القرآن نداء الإنسان لبعض المعاني مثل ندائه للتمني في (يا ليت) ونحوها، وندائه للحسرة والهلاك في مثل: (يا حسرتا)، و(يا ويلتا) ونحوهما.

تاسعا: جعل القرآن النداء تشريفا وتكريما لبعض المقربين من أولياء الله، فلما أراد القرآن بيان اختلاف حال التكريم ترك النداء، وصرف الخطاب إلى الغيبة، كما في نداء الله لآدم وهو في الجنة ثم أمره بالخروج منها بغير نداء، وكما في نداء نوح عليه السلام حين اختلفت صورة النداء بعد أن سأل الله ما سأله في ولده.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المصادر والمراجع

- ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسي، بتحقيق د/ رجب عثمان محمد، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- الأطول، لعصام الدين الحنفي، بتحقيق عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، بيروت.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، دار الكتب العلمية بيروت.
- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.
- التبيان في إعراب غريب القرآن، لأبي البركات الأنباري، تحقيق بركات يوسف هبود، لم تحدد طبعته، دار الأرقم، بيروت.
- التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، تحقيق على محمد الجاوي، لم تحدد طبعته أو تاريخها، مطبعة البابي الحلبي وشركاه، مصر.
- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، غير محدد الطبعة، ١٩٨٤، الدار التونسية، تونس.
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، الطبعة الأولى، غير محددة التاريخ، مكتبة الأوس، المدينة المنورة.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، لم تحدد طبعته، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت..
- جواهر الأدب لعلاء الدين الأربلي بتحقيق الدكتور حامد أحمد نيل، (لم تحدد الطبعة) ١٤٠٤هـ، مكتبة النهضة المصرية.
- حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي، لمصطفى بن إبراهيم الرومي، صححه عبد الله محمود عمر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- حاشية الدسوقي على مختصر السعد ضمن شروح التلخيص، لم تحدد طبعته، أو تاريخها، دار الباز، مكة المكرمة.

- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة (عناية الراضي وكفاية القاضي). للشهاب الخفاجي، غير محدد الطبعة، أو تاريخها. دار إحياء التراث العربي بيروت.
- حاشية الصبان على شرح الأشموني، غير محدد الطبعة أو التاريخ مطبعة الباي الحلبي. مصر.
- حاشية القنوي على تفسير البيضاوي، لعصام الدين الحنفي، ضبطه وصححه عبد الله محمود عمر، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- حلية اللب المصون على الجوهر المكنون، للشيخ أحمد الدمنهوري، بهامش شرح عقود الجمان للسيوطي، لم تحدد طبعته، ١٣٥٨ هـ، مطبعة الباي الحلبي، مصر.
- روح المعاني، للعلامة شهاب الدين الألوسي، غير محدد الطبعة أو تاريخها، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج بن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى، بتحقيق كمال يوسف الحوت لم تحدد الطبعة أو تاريخها، دار الفكر، بيروت.
- شرح التسهيل لجمال الدين بن مالك، تحقيق د/ عبدالرحمن السيد، ود/محمد بدوي، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، دار هجر، مصر.
- شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، لجلال الدين السيوطي، لم تحدد طبعته، ١٣٥٨ هـ، مطبعة الباي الحلبي، مصر.
- شرح كافية ابن الحاجب للرضي، غير محدد الطبعة، أو تاريخها، دار الكتب العلمية، بيروت.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني، الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي، ضمن شروح التلخيص، لم تحدد طبعته، أو تاريخها، دار الباز، مكة المكرمة.
- غرائب التفسير وعجائب التأويل لمحمود بن حمزة الكرمانلي، تحقيق شمران العجلي، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، دار القبلة، جدة.

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، للإمام محمد بن علي الشوكاني، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ، دار ابن كثير، دمشق.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير لمحمد بن عبد الرؤوف المناوي ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- فيض الفتاح علي نور الإقحاح، لسيد عبد الله بن الحاج الشنقيطي، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ هـ، لم يحدد مكان الطباعة.
- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي، الطبعة الأولى ١٩٩١م، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت.
- الكتاب، لسيبويه، بتحقيق عبدالسلام هارون - الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الكشاف لجار الله الزمخشري. حققه محمد الصادق قمحاوي. الطبعة الأخيرة ١٣٩٢ هـ ، مطبعة البابي الحلبي، مصر.
- لسان العرب ، لجمال الدين بن منظور، غير محدد الطبعة، دار صادر ، بيروت.
- مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، ضمن شروح التلخيص، لم تحدد طبعته، أو تاريخها، دار الباز، مكة المكرمة.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام عبد الله بن أحمد النسفي الطبعة الأولى، لم يحدد تاريخها. دار الكتب العلمية، بيروت.
- معاني القرآن لأبي زكريا الفراء، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار، غير محدد الطبعة أو تاريخها، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- المفصل، لأبي القاسم الزمخشري، الطبعة الثانية، غير محددة التاريخ ، دار الجيل ، بيروت .
- مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي (ضمن شروح التلخيص، الطبعة غير محددة الطبعة أو التاريخ، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة) .
- المطول على التلخيص، لسعد الدين التفتازاني، غير محدد الطبعة ١٣٣٠ هـ ، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
١٥٩	• الملخص
١٦١	• مقدمة
١٦٤	نداء الاصطلاح والدلالة البيانية.....
القسم الأول: النداء من الله	
١٧٥	أولاً: النداء لإظهار عظمة المنادي وعلو منزلته
١٧٨	ثانياً: النداء للتشريف والتكريم
١٨٩	ثالثاً: النداء لعظم الأمر المدعو له
القسم الثاني: النداء من الخلق	
٢٠٥	أولاً: النداء لتعظيم المنادى
٢١٠	ثانياً: النداء لعظم الأمر المنادى له
٢١٥	ثالثاً: الحرص على إقبال المنادى
٢٢٥	رابعاً: النداء للتقليل من شأن المنادى
٢٢٩	• الخاتمة
٢٣٢	• المصادر والمراجع
٢٣٤	• فهرس الموضوعات